

الله محمد بن تومرت وقيل إن نسبه يصل إلى الحسين عليه السلام. وكان فقيهاً في ابتداء أمره، ورافق الغزالي والكنيا ، والطرطوشي، وكان رأى في منامه كأنه يشرب ماء البحر، وروي أنه ظفر بكتاب الجفر من بعض الخزائن، ورأى فيه صفة عبد المؤمن بن علي، وأنه يملك فحج ومضى إلى المهديّة وسلطانها يومئذ يحيى بن تميم، ونزل في مسجد، وليس معه إلا ركوة وعصا، فبلغ يحيى خبره وأحضره وسأله الدعاء، فدعا له ، وتستمع أهل البلد وقرأ عليه العلم، ثم انتقل إلى المنستير، فنزل بالقصر، ثم انتقل إلى قرية من قرى بجاية يقال لها ملالة، فلقية أبو محمد عبد المؤمن بن علي فصحبه فأخبره المهدي عن اسمه وقبيلته فأخبره باسمه، وأنه من قيس من سليم من شعب بني الشريد، فقال له المهدي أنت الذي بشر بك النبي « صلى الله عليه وسلم » في قوله: « إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمن برجل من قيس، فليل له من قيس يارسول الله؟ فقال: من سليم » فاستبشر عبد المؤمن بذلك، وعلم أنه مقيم دعوته، فلم يزل المهدي مصاحباً له حتى توفي المهدي.

## ودخلت سنة سبع وخمسة

فيها توفي الملك رضوان ملك حلب، وفيها ملك حلب تاج الدولة الأخرس بن رضوان، وفيها قتل مودود بجامع دمشق، وفيها تسلم أتابك طغتكين صور من المصريين، وفيها قتل الأمر بأحكام الله صاحب مصر، في الجزيرة بمصر، قتله الاسماعيلية، وفيها مات أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين الشاشي صاحب المستظھري، الفقيه الشافعي مولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، أخذ العلم عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي، وكان إماماً عالماً، وولي التدريس بنظامية بغداد، وفيها مات وزير المستظھر بالله، أبو القاسم علي بن محمد بن جھير.

## ودخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها : زلزلت الأثارب وحسف بمرعش وسميساط. وفيها كانت وقعة في الشام بين آق سنقر البرسقي وبين إيلغازي بن أرتق واتفق إيلغازي، وأخذ ابنة طغتكين صاحب دمشق، وخالف السلطان فأفرج عن إيلغازي وأخذ ابنه اياز وحبس، ونفذ السلطان العساكر إلى الشام مقدمها برسق، وتقدم إليهم أن كل بلد يفتحونه يسلمونه إلى بركات بن قراجة، ويعقد له إمارة الشام، فكان ذلك مما أوجب مخامرة العساكر، وقالوا: أي حظ لنا في فتح البلاد وتسليمها إلى هذا، فخرج عليهم بروجيل الفرنجي صاحب أنطاكية، في خمس مائة فارس، وألفي راجل، فتخاذلوا وانهمزوا على كثرة جمعهم، وقتل الفرنج من المسلمين جماعة وأحرقوا الأسارى.

## ودخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها: فتح برسق حماه.

## ودخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها: مات السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، واستقرت السلطنة لولده محمود. وفيها قتل لؤلؤ الخادم صاحب حلب، قتله قوم من الأتراك وهو متوجه إلى قلعة جعبر.

## ولما دخلت سنة اثنتا عشرة وخمسمائة

توفي المستظهر بالله بها لسبع بقين من ربيع الآخر، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وأشهرًا، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبانصور الفضل، المسترشد

بالله، وولي الخلافة بعد أبيه، وأبا عبد الله محمد، المقتضي لأمر الله، وأبا الحسن، وأبا طالب، وإبراهيم، وإسماعيل وعيسى، وابنتين.

### خلافة المسترشد بالله

أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولد في رابع ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد، تدعى طرفة ، بويح بالخلافة يوم موت أبيه في سابع عشرين ربيع الآخر، سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، وفيها فتحت الفرنج أعزاز والرها، وتسلم إيلغازي حلب.

### ودخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها: ورد سنجر بن ملكشاه من خراسان إلى الري فملكها وتسمى بالسلطنة. وفيها عبر نجم الدين صاحب ماردين الفرات، فكسر فرنج أنطاكية، وقتل ملكهم روجال، وأسر منهم على تل عفرين على ما قيل عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ثم بعد ستة أيام وقعت حرب بين المسلمين والفرنج على دانيث من أرض سمرين. فكسر المسلمون نصف الفرنج، وكسر الفرنج نصف المسلمين، وهلك من الفريقين خلق عظيم، ثم بعد ذلك نصر الله المسلمين، وأخذوا قلعة الآبار.

### ودخلت سنة أربع عشرة

فيها: تسلم أتابك طغتكين تدمر، والشقيف، وفيها كسر إيلغازي الفرنج على البلاط من أعمال حلب، وأخذ صاحب أنطاكية أسيراً، وفيها أطلق نجم الدين بن أرثق لأهل حلب جميع ما كان جده عليهم الملك رضوان من الكلف، فكان مقداره في كل سنة اثني عشر ألف دينار، وزاد الكيل والذراع.

## ودخلت سنة خمس عشرة

فيها قتل الأفضل أمير الجيوش بمصر، وفيها تسلم الفرنج أعزاز من المسلمين.

## ودخلت سنة ست عشرة

فيها: مات الحريري، صاحب المقامات، وهو أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان، ولد في حدود سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكان السبب في عمله المقامات أنه كان يوماً جالساً بمسجده بالبصرة، ويعرف بمسجد بني حرام، فدخل عليه شيخ، عليه أهبة السفر، رث الحالة، فصيح اللهجة، فسأله من أين هو فقال من سروج، وكنتي أبو زيد، فعمل الحريري المقامة الحرامية، فبلغ أنو شروان بن خالد، وزير المسترشد بالله، وزير السلطان محمد ذلك، وطالع المقامة فأمره أن يضم إليها غيرها، فامتثل أمره وعمل المقامات المشهورة به، وفيها في صفر قتل السلطان محمد وزيره خواجا بزرك.

## ودخلت سنة سبع عشرة

فيها: برز المسترشد بالله لحرب ديبس بن صدقة، فخرج لابساً قباء أسود، وعمامة وبردة النبي - صلى لله عليه وسلم - وعلى رأسه طرحة، وتهياً، ديبس للقتال وهو بالحلة، وكان في عساكر ديبس البغايا والمخانيث، والملاهي يضرب بها، ولا يسمع في عسكر المسترشد إلا قراءة القرآن والتسبيح، فهزم ديبس أقبح هزيمة، بعد أن قتل منهم خلق عظيم، ونصر الله المسترشد وأصحابه، ونهبوا الحلة، وكان سبب ذلك عصيان ديبس وسفكه الدماء، وقطعه الطريق، حتى بطل الحجيج في سنة ست عشرة خوفاً، وبعث المسترشد إليه يخوفه ويعظه ويحذره فلم ينته فأوقع به النهب والقتل، ولما كسر ديبس انهزم إلى الملك طغرل بك

ابن أخي السلطان محمود، لما علم من طغر لبيك من طلبه الملك، فسار طغر لبيك ودييس معه بعسكرهما نحو بغداد. وفيها تسلم الفرنج قلعة الأثارب، وأقامت في أيديهم إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وفيها حاصر بلك حلباً وتسلمها.

### ودخلت سنة ثمانى عشرة

فيها: وصل طغر لبيك ودييس إلى القرب من بغداد، ولم يشعر المسترشد بذلك، فمرت جمال عليها أمتعة ومال للمسترشد فأخذها ديبس، وكان المسترشد مبرزاً على الدسكرة، فلما بلغه ذلك سار حتى أشرف على ديبس وأصحابه، فلما علم ديبس أنه لامفر له نزل وقبل الأرض بين يدي المسترشد وقال: أنا العبد المطرود المذنب، أما أن له أن يعفى عنه، فلم يجبه أحد، فعاود القول والتضرع، فرق له المسترشد وهم أن يعفو عنه، فصرفه الوزير عن ذلك، فلما رأى ديبس ذلك أخذ أصحابه وانصرف، وعاد المسترشد إلى بغداد. وفيها تسلم البرسقي حلباً، وفيها جمع الجوسلين الرومي عساكر الفرنج ونزل على حلب، وأقام أربعة أشهر، وخرب المشاهد والضياع، وخرج جماعة من أهل حلب إلى تمرتاش سألوه نصرتهم فلم يجبهم، فساروا إلى آق سنقر البرسقي، وكان قد مرض مرضة، ونذر إن عافاه الله تعالى ليفرجن عن حلب الشدة، فسار مع شيوخ الحلبيين في جيش قاصداً حلب، فلما علم الفرنج بذلك رحلوا عن حلب مرحلة إلى جبل جوشن، وضرىوا الخيم عليه، ووصل آق سنقر إلى حلب في ذي الحجة من السنة، وصعد قلعة حلب، وتحولت الفرنج إلى الأثارب، وتحول المسلمون إلى السعدي. وفيها قتل بلك ملك، ضربه مجير الدولة البعلبكي صاحب منبج في ودجه فهلك، وفيها قتل الفرنج محمود بن قراجة صاحب حماة على أفامية، وفيها نزل آق سنقر البرسقي. بمجمع المروج بين حمص وحماه، وعزم المسلمون على الجهاد، فأول موضع حاصروه وفتحوه كفر طاب، فتحتها آق سنقر البرسقي

وسلمها إلى صاحب حمص، ثم حاصر قلعة أعزاز ونقبوها وهرب الفرنج منها، وفيها في نصف ربيع الآخر قتل القاضي أبو الفضل بن الخشاب رحمه الله، تبعه قوم بعد صلاة العشاء الآخرة فقتلوه، فأمر آق سنقر البرسقي بقتل جماعة من أهل حلب ممن اتهم بالباطنية لأجله. وتوجه آق سنقر إلى الموصل.

### ودخلت سنة عشرين وخمسة

فيها: دخل السلطان محمود بغداد، ونقل المسترشد بالله الحرم إلى الجانب الغربي، ونزل السلطان محمود بالجانب الشرقي، ونهب دار الخلافة، وجرى قتال ونهب، ثم اتفق الصلح، وحلف السلطان محمود للمسترشد بالله، واختلط الجيشان على إتفاق. وفيها وصل قتلغ آبه غلام السلطان محمود بتوقيع من مسعود بن آق سنقر البرسقي إلى نائبه بحلب تومان، حتى يسلم إليه حلب فلم يقبل التوقيع، وكان بصحبته مجد الدين الطويل، صاحب حران فدفع قتلغ آبه التوقيع إليه من مسعود وفيه صورة غزال وطال الأمر على قتلغ آبه، فعاد إلى مسعود فوجده قد مات على باب الرحبة، وهو مطروح على نطح، وقد اشتغل الناس بنهب بعضهم بعضاً، فعاد قتلغ آبه إلى حلب وحلف لتومان وتسلم قلعة حلب منه.

وفيها: قبض السلطان سنجر بن ملكشاه على ديبس بن صدقة، وكان نازلاً عليه، واعتقله في قلعة تقرباً إلى المسترشد بالله، وفيها قفز جمع من الباطنية على آق سنقر البرسقي فقتلوه بجامع الموصل في يوم جمعة، فلما قتل ورد رسول السلطان سنجر بن ملكشاه إلى بغداد يأمرهم بتسليم الموصل إلى ديبس بن صدقة، وجميع ما كان بيد آق سنقر البرسقي فتهيأ ديبس للمسير، فبعث المسترشد إلى السلطان محمود لا يكون ذلك أبداً، ووقع اختيار المسترشد على أن يولي الموصل لعماد الدين زنكي بن آق

سنقر، وزنكي يومئذ شحنة بغداد، وبذل المسترشد للسلطان محمود مائة ألف دينار على تولية زنكي الموصل، فتسلمها وسار السلطان محمود إلى همدان.

## ودخلت سنة اثنتين وعشرين

فيها: تسلم أتابك زنكي قلعة حلب والرحبة.

## ودخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسة

وفيها عاد السلطان محمود إلى بغداد فدخلها وانحدر إليه أتابك زنكي من الموصل بهدايا، ثم عاد إلى الموصل ومعه توقيع السلطان محمود بالموصل والجزيرة وحلب والشام والعواصم وما اتصل بذلك، وفيها نزل الفرنج دمشق بقرية السعادة. وفيها تسلم الفرنج بانياس من الاسماعيلية، وفيها قتل المزدقاني بقلعة دمشق، وفيها قتل اخو اجا بهرام ومعه جماعة كثيرة بوادي التيم، وفيها خرج سيف الدين سوار بعسكر حماه وأوقع بالفرنج على كفر طاب، فقتل منهم خلقاً عظيماً، وفيها وصل أسطول الفرنج في البحر، وسمعوا خبر دمشق وخلوها من سلطان فطمعوا بها فجمعوا خمسين ألف فارس وراجل، وخرجوا من البحر، ونزلوا على دمشق ثم أناخوا بحوران، فأنفذ تاج الملوك إلى سيف الدين سوار، وإلى العرب، فجاء الأمير مري بن ربيعة، ومعه خلق من العرب وضربوا مع الفرنج مصاف القتال، فقتلوا من الفرنج أمماً لا تحصى، وأحرقوا خيمهم ورجالهم ورحلوهم عن بلد دمشق عرياً، وفيها مات السلطان محمود بباب أصفهان، وولي أخوه مسعود مكانه، هكذا ذكره بعض المؤرخين، وقيل إن وفاته كانت في سنة خمس وعشرين.

## ودخلت سنة أربع وعشرين

فيها قتلت الباطنية الأمر بالله أبا علي، صاحب مصر ابن المستعلي بالله، وعمره يومئذ أربع وثلاثون سنة، وتولى مكانه أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم المستنصر ولقب بالحافظ الكفيل، وفي ثالث يوم من جلوسه تغلب الأفضل أبو علي ابن أمير الجيوش، بدر على الدولة، وقبض على الحافظ واعتقله بالقصر، فتحالف جماعة من مماليك الأمير على قتل أبي علي، فقتلوه بسيفه، واحتزوا رأسه، ويقال إنه كان سيف الحسين بن علي عليهما السلام، وأخرجوا الحافظ من ساعتهم وبأيعوه، وفيها كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن تومرت المهدي صاحب بلاد المغرب.

## ودخلت سنة خمس وعشرين وخمسة

فيها قتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، وقتلت أم ولده شمس الملوك إسماعيل بعده. وفيها قبض ديبس بن صدقة بحلّة حسان بن مكتوم من أعمال دمشق، وقد ضل عن طريقه إلى صرخد، وتقطع أصحابه فلم يكن له مهرب من العرب، فقبضوا عليه وجملوه إلى دمشق، فقايضه أمير دمشق ابن طغتكين من عماد الدين زنكي وكان عدواً لديبس، فظن ديبس أنه سيهلكه، فلما حصل في قبضته أكرمه وعظمه وخوله المال والسلاح والرجال حتى قدمه على نفسه، وكان المسترشد بالله لما بلغه أسر ديبس بدمشق بعث ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى دمشق ليأخذ ديبس من الأسر، للعداوة التي كانت بين ديبس وبين المسترشد، فلما وصل ابن الأنباري إلى الرحبة في الماء علم بحصول ديبس في يد زنكي ثم نفذ زنكي عسكرياً إلى الرحبة، قبضوا على ابن الأنباري وجملوه إلى قلعة الموصل.

## ودخلت سنة ست وعشرين

فيها وصل الملك مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، وورد إليها قراجا الساقى صاحب فارس وخوزستان، ومعه سلجوق شاه بن محمد وهما يطلبان السلطنة . وقراجا أتاك سلجوق، وانحدر زنكي بن آق سنقر من الموصل لينضم إلى الملك مسعود، فلما بلغ إلى تكريت جهز قراجا إليه ألفي فارس، فهزموا زنكي وقتلوا من أصحابه جماعة، وأسروا جماعة، وأصلح المسترشد بالله بين الملك مسعود وبين أخيه سلجوق شاه، وخطب لهما جميعاً، وقطعت الخطبة لسنجر بالعراق، واستقر الحال على أن يخرج المسترشد بنفسه مع مسعود وسلجوق لمحاربة سنجر، وقد خطب له على منابر الشام وديار ربيعة، ومضر، وديار بكر والعراق وأصفهان وفارس، وأما خراسان فله خاصة دون سائر الناس حتى سمي ذا القرنين سنجر، وورد سنجر بالعساكر العظيمة، من خراسان، والتقى الجمعان وقامت الحرب، فقتل قراجا وانهمز مسعود وسلجوق شاه، وأما المسترشد فإنه كان بخانقين ولم يشهد حرباً، وقصد محاربة زنكي بن آق سنقر ودييس، فالتقوا على فرسخين من غربي بغداد، ووقع بينهم الحرب نصر فيها المسترشد وكسر عسكر زنكي ودييس، وانهمزا، وعاد المسترشد إلى بغداد منصوراً، وأما سنجر فإنه عاد إلى بلاده وأخذ البلاد التي بيد قراجا، وهي بلاد فارس وخوزستان، وكاتب زنكي بن آق سنقر ودييس ابن صدقة ليقصدا بغداد ويفتحاها، فتوجهتا إليها في سبعة آلاف فارس، فلما شارفاها لقيهما المسترشد بألفي فارس وحاربهما فانتصر عليهما وغنم عسكرهما وانهمزا.

## ودخلت سنة سبع وعشرين

وفيها دخل السلطان مسعود بن محمود إلى بغداد، فخطب له بالسلطنة بها، وبعده لابن أخيه داود، وخرج المسترشد بالله ومعه

السلطان مسعود وابن أخيه داود فخيّم على بغداد، ثم سير السلطان مسعود وداود إلى أذربيجان لحرب طغرل بن محمد، صاحب همذان، فساروا ولقوه وهزموه، واستقر مسعود بهمذان، وفيها توجه المسترشد إلى الموصل بنفسه لمحاربة زنكي، فأغلق زنكي بابها في وجه المسترشد، فضرب المسترشد عليها خيمه. وجمع عليها عالماً لا يحصى، وحاصرها قريباً من ثلاثة أشهر، فبعث إليه زنكي، وضمن له أن يحمل له عوضاً عن جميع ما خرج منه، وبذل له الطاعة.

### ودخلت سنة ثمان وعشرين

فيها مات ابن تومرت بالمغرب، وظهر عبد المؤمن، وفيها مات القاضي أبو علي الحسن بن إبراهيم بن علي بن برهون الفارقي، الشافعي، ولد في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ودرس العلم في شببته على يد أبي عبد الله الكازروني، صاحب المجاملي، فلما توفي الكازروني في سنة خمس وخمسين وأربعمائة، قصد الشيخ أبا اسحق الشيرازي، إلى بغداد، والشيخ أبا نصر بن الصباغ وتفقه عليهما، وحفظ المذهب للشيخ أبي اسحق والشامل للشيخ أبي نصر، وكان يقول لأصحابه كررت البارحة الربع الفلاني من المذهب، والربع الفلاني من الشامل، وقد نيف على التسعين سنة، وولي القضاء بواسط، وتوفي فيها، وقد قارب المائة سنة، وفيها قطع المسترشد ذكر السلطان مسعود من الخطبة، وسار إلى همذان فاصداً محاربتة، فالتقوا وكسر المسترشد من غير قتال، وأخذ جميع ما معه من خيل ومالٍ وأسلحة، وأسروا جميع كبار الدولة، وضرب السلطان مسعود في دهليزه خيمة أقعد فيها المسترشد وعليه الموكلون به، وبعث شحنة له إلى بغداد فلم يرده أحداً، ثم أعاد الراشد بالله، وهو ولي عهد المسترشد بالله، الخطبة للملك مسعود، وأعاد النوبة التي تضرب بدار المملكة، وقطع خطبة داود.

## ودخلت سنة تسع وعشرين

فيها قتل شمس الملوك بدمشق، قتله أمه، وفيها قتل محمود بن بوري ابن طغتكين أخاه اسماعيل صاحب دمشق، وتقلدها بعده، وفيها قتلت الاسماعيلية بوري صاحب دمشق.

وفيها سار السلطان مسعود إلى أذربيجان والمسترشد معه أسير موكل به حتى نزلوا قريبا من مراغة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لقتله، فدخلوا عليه فقتلوه وقتلوا معه ثلاثة من أصحابه، فلما علم السلطان مسعود بذلك ركب خائفاً وقتل الباطنية جميعهم، وأحرق جثثهم بعد أن كان الصلح استقر بين المسترشد وبين السلطان مسعود، على مال يحمل إلى السلطان مسعود، واستقر عود المسترشد إلى بغداد، ومشى السلطان مسعود بين يدي المسترشد حاملاً غاشيته، وبينما هم كذلك، إذ قتل المسترشد كما ذكرناه، وحملت جنازته إلى مراغة، فدفن بها، وخرج أهل مراغة حفاةً، حاسري رؤوسهم، وكسروا المنابر، وعطلوا المساجد، ولما ورد الخبر بقتل المسترشد إلى بغداد كسروا منابر الجوامع، واقتلعوا أبواب المساجد، وناحوا في الطرقات وجهروا بسب الملكين سنجر ومسعود، وكان قتله في سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسة، وكان المسترشد بالله عالماً فصيحاً مدبراً ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وكان شديد الهيبة، مشهوراً بالشجاعة، كتب إليه مرةً وزيره الحسن بن علي بن صدقة، وقد نقم عليه أمراً فصرفه:

ستعلم إن أقصيتني أي خادم  
يفوتك إن سارت بليل كتابه  
وتندم إن ظلمت لغيرك أنعم  
علي وقادتنني إليه مواهبه

فكتب المسترشد إليه بخطه تحت لفظه قوله: خادم « مثله كثير » ،

وتحت قوله تندم : « يا هذا الندم أولى بك » . وكتب الوزير إليه مرة كتاباً أوله :

حتى متى أنا موقوف على ظمأ  
بين السبيلين لا ورداً ولا صمداً

فأجابه المسترشد بالله بخطه تحت هذا البيت « إذا عاودت فكرك فيما شطرته، اعترفت بوجود الغلط والزلل فيما أثبتته والسلام»، وكانت مدة خلافه المسترشد بالله سبع عشرة سنة ونصف وأياماً.

### خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد

مولده في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسمائة، ببيع ببغداد حين قتل أبوه بمراغة، وكوتب السلطان مسعود بولايته فأجاب، ولما قتل أبوه كان هو ببغداد مستولياً عليها، وكان أبوه ولاء العهد، وهم بعزله فلم يقدر، وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل ديبس بن صدقة، قتله السلطان مسعود، بعث إليه غلاماً فقتله في خيمة النوبة وأبان رأسه، وذلك بعد ثمانية وعشرين يوماً من قتل المسترشد بالله، وفي هذه السنة توفي مالك بن سالم بقلعة جعبر، قتله محمود بن بوري.

### ولما دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

تظاهر الراشد بمباينة السلطان مسعود، فلما بلغ السلطان ذلك قصد بغداد وحاصرها ثلاثة أشهر، فقلق الراشد من الحصار، وخرج من بغداد خفية يريد الموصل، فلما توجه من بغداد، اجتمع الوزير أبو القاسم علي بن طراد الزينبي وسديد الدولة ابن الأنباري الكاتب، وأحضرا القضاة والفقهاء، وكتبوا محضراً أخذوا فيه خطوط جماعة من العدول بما فعله الراشد من الظلم وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وأنه فسق بذلك، وأخذوا خطوط الفقهاء بأنه إذا ثبت فسقه جاز لسلطان الوقت خلعه

والاستبدال بغيره من أهل بيته، ممن يصلح للخلافة، وعرضت الفتوى والمحضر على السلطان مسعود فقال: هذا أمر قد قلدتكموه، وأنا منه بريء عند الله تعالى، فخلعوه، ووقع اتفاقهم على أبي عبد الله محمد بن المستظهر فبايعه السلطان مسعود، والجماعة الحاضرون، ولقبوه المقتفي لأمر الله، ثم عاد السلطان مسعود إلى داره، وفتح الباب، وبايعه الفقهاء وأعيان الناس، وبعث السلطان مسعود الفتوى والمحضر إلى الآفاق، ليتمهد عذره عند الناس، وكان خلعه في منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسة، وكانت مدة خلافته، إلى أن خلع أحد عشر شهراً وأياماً، وأما الراشد فإنه أقام بالموصل، فراسل السلطان مسعود أتاكب زنكي في القبض على الراشد، وانفاذه إليه إلى بغداد، فامتنع من ذلك لكونه ضيفاً عنده، وجهاز أتاكب زنكي الراشد إلى مراغة، ليخرج من ولايته، فتوجه الراشد فوصل إلى مراغة، وملكها، وأقام بها ثم سار نحو الري، ثم طلب خراسان ولما قرب من ولاية الباطنية جرد السيف وقتل منهم جماعة كبيرة، ثم عاد يطلب همذان وخرج السلطان مسعود إلى الراشد يحاربه، فاتفق الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزيبه صاحب خوزستان على محاربة السلطان مسعود، فحاربوه، فكانت الكثرة على السلطان مسعود، وقتل من أصحابه خلق عظيم، ثم توجه الراشد إلى أصفهان في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، فقتلوه، وقيل إنه سم بها ودفن بموضع يقال له شهرستان على فرسخ من أصفهان، وقيل بل دفن بجامع المدينة القديمة التي يقال لها جي بأصفهان، وكان قتله في سابع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة.

## خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله

أمه أم ولد تدعى ياغي، وتلقب بست السادة، مولده في سنة تسع

وثمانين وأربعمائة، وبويع بالخلافة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، بايعه السلطان مسعود والأكابر والعامّة.

### ولما دخلت سنة اثنتين وثلاثين

ولد فيها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، وفيها كانت زلزلة عظيمة هدمت الأثارب، وفيها خيم أتابك زنكي على حماه، ثم ملك حمص، ومضت الروم إلى شيزر فحصروها، فسار إليهم أتابك زنكي ومعه داود، وحسام الدين ابنا أرتق، فرحلوا الروم عن شيزر، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام، ونزلوا على حلب، فلقبهم أتابك زنكي ومعه العساكر.

### ودخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان بحلب زلزلة عظيمة أتت على مائتي ألف نفس فهلكوا.

### ودخلت سنة أربع وثلاثين

فيها ولد الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تعالى.

### ودخلت سنة خمس وثلاثين

فيها مات أبو بكر عبد الباقي المعروف بقاضي البيهراستان عن نيف وتسعين سنة، وكان محدثاً عالماً عالي الاسناد، عالماً بالمنطق، وعلم الهيئة، مشهوراً، وفيها توفي أبو القاسم بن أفلح الشاعر الكاتب.

## ودخلت سنة سبع وثلاثين

وفيها ولد الملك العادل سيف الدين، أبو بكر بن أيوب، وقيل بل ولد في سنة إحدى وأربعين، وفيها مات سيف الدين بدمشق.

## ودخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها مات الوزير أبو القاسم بن طراد الزينبي عن ست وسبعين سنة، وكان عظيماً جليلاً، وفيها قتل السلطان داود بن السلطان محمود بن ملكشاه، على يد جماعة اغتالوه ولم يعرف قاتله، وفيها مات الزخشي الامام في علم النحو، وهو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وأخذ علم النحو عن أبي نصر النحوي، وكان هذا - أبو النصر - عالماً فاضلاً، وفيه يقول الزخشي لما مات أبو النصر:

وقائلة ما هذه الأدمع التي

تساقط من جفنيك سمطين سمطين

فقلت هو الدر الذي قد حشابه

أبو نصر أذني تساقط من عيني

## ودخلت سنة تسع وثلاثين

فيها فتحت الرها، ودخل علي كوجك إلى الموصل، في ذي القعدة منها، وفيها تسلم أتابك زنكي سروج من الفرنج، وفيها مات الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، المعروف بابن الجو اليقي، الامام في علم النحو واللغة، ولد في سنة ست وستين وأربعمائة، وكان عالماً فاضلاً ورعاً، ديباً، ثقة، أخذ العلم عن أبي زكريا الخطيب التبريزي وغيره، وكان يصلي بأمر المؤمنين المقتضي لأمر الله، ويؤدب أولاده، وصنف في علم الأدب تصانيف جمّة.

## ودخلت سنة إحدى وأربعين

فيها قتل أتابك زنكي بن آق سنقر على قلعة جعبر، وهو محاصرها، قتله بعض غلمانه، وكانوا جماعة سلف منهم ذنب، فتوعدهم فخافوه، فقتلوه، وكان له سطوة وبأس، وخلف من الأولاد الذكور أربعة : نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير ميران، وقام بالأمر بعده ابنه سيف الدين غازي بالموصل وأكثر الولاية.

## ودخلت سنة ثلاث وأربعين

فيها : قتل شاهنشاه بن أيوب في حملة حملها على الفرنج، وفيها أخذ نور الدين محمود أفامية من الفرنج، وفيها نزل ملك الألمان على دمشق، في يوم السبت، ورحل يوم الأربعاء، فكانت مدة مقامه خمسة أيام، وفيها أيضاً حاصرت الفرنج دمشق، فجاء سيف الدين غازي بعسكر عظيم، فرحل الفرنج عنها، وجهز أخاه قطب الدين مودود بعسكر كبير إلى أخيه نور الدين محمود فنزلا على البارة، وأخذها في هذه السنة.

## ودخلت سنة أربع وأربعين

فيها: توفي الأمير سيف الدين غازي بن أتابك زنكي، وفيها تسلم نور الدين حمص، وتل باشر، وفيها مات خليفة مصر أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، الملقب بالحافظ، وقيل بل مات في سنة ثلاث وأربعين، وجلس بعده ولده أبو المنصور إسماعيل الظافر، بنص أبيه، وكان أصغر الأولاد سناً، فأقام متولياً مدة ثم قتله وزيره عباس بن تميم المغربي وابنه ناصر الدين خفية، وأخفيا قتله، وأنكراه، وأجلسا مكانه للخلافة الفائزة، فكتب أهل القصر كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان في الصعيد الأدنى، وأصبحوا الكتاب شعور النسوان، فلبس

طلائع السواد، وجند جمعاً عظيماً وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر، فساعده، فتوجه إلى مصر، فلما سمع عباس وابنه بذلك هربا بأموالهما وكانت عظيمة، فلما وصلا إلى منهل يعرف بمرة وأم كعب قاصدين الشام، خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصرأ، وأخذوا جميع أموالهما، وأما طلائع بن رزيك فإنه وافى القاهرة، فدخلها وأجلسه أهلها للوزارة، ولقبوه الملك الصالح، واستقام أمره، واستقل بتدبير الدولة، ثم كاتب الفرنج وبعث رسولا من الفائز ومن عنده، وبعث لهم معه هدايا وأموالاً جزيلة، وطلب منهم نصر بن عباس فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وعاد به إلى القاهرة، فأخذه الصالح طلائع وسلمه إلى النساء فأقمن يضربنه بالقباقيب، والأمدسة أياماً متوالية، ثم قطعن لحمه وأطعمنه إياه مدة شهر حتى مات، ثم صلب على باب زويلة، ثم أحرقوه، وفيها غزا نور الدين محمود بن زنكي فقتل البرنس ملك أنطاكية، ففتح كثيراً من قلاعهم، وفيها وزر عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يلقب قبل ذلك بجلال الدين.

### ودخلت سنة خمس وأربعين

فيها تسلم نور الدين محمود من الفرنج قورص والراوندان، وتسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان بهسنا، وكيسون وقونية ورعبان والمرزبان، وفيها تسلم نور الدين من الفرنج أعزاز، وفيها تسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان من الفرنج عين تاب.

### ودخلت سنة ست وأربعين

فيها قتل علي بن مالك صاحب قلعة جعبر بموضع يقال له وادي العوسج.

## ودخلت سنة سبع وأربعين

فيها مات السلطان مسعود بن محمود بهمدان، وفيها توجه السلطان سنجر إلى أترك بأطراف خراسان، يسكنون البر في خركاوات، عدة بيوتهم مائة ألف خركاه، فأعطوه لكل خركاه شيئاً من الذهب عينوه فلم يقبل، وصافوه فنصروا عليه وكسروه وقوي أمرهم، وخربوا البلاد وأخلوها وقتلوا أهلها، وأتوا مرو فقتلوا كل من فيها، وجاؤوا إلى نيسابور فقتلوا كل من فيها من الفقهاء والعوام وقتلوا في تلك النوبة الامام محيي الدين محمد بن يحيى الشافعي صاحب الغزالي - رحمه الله - وكان تاريخ العلوم الخلافية، واسروا سنجرأ. واحتاطوا عليه، وخطبوا له، وقالوا له أنت السلطان ونحن عسكريك، وما زال أسيراً في أيديهم حتى مات، وفيها مات أبو منصور المظفر بن أزدشير العبادي الواعظ، كان عظيم القدر في الزهد والوعظ، له كلام مدون مذكور، وكان قد مضى من دار الخلافة في رسالة إلى الملك محمد بن محمود فمات في الطريق، وحمل تابوته إلى بغداد، ودفن بها، وفيها أطلق نور الدين من جميع البلاد المكوس والمؤن في شهر رمضان.

## ودخلت سنة ثمان وأربعين

فيها نقل رأس الحسين - عليه السلام - من عسقلان إلى مصر، وبنى عليه الظافر مشهداً عظيماً، وكانت عسقلان للمسلمين إلى أن نقل الرأس عنها، فبعده بقليل أخذت الفرنج عسقلان.

## ودخلت سنة تسع وأربعين

فيها: فتح نور الدين محمود دمشق، وفيها قتل الظافر صاحب مصر، وولي الفائز.

## ودخلت سنة خمسين

فيها: وصل الملك سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد عبداً وضيعاً وتلقي بولد الوزير عز الدين ابن هبيرة، ولم ينزل أحدهما للآخر، فنزل سليمان شاه وقبّل عتبة الباب النوري، وعطف عليه المقتفي لأمر الله، وقضى ذمامه وخطب له بالسلطنة، وجهزه المقتفي بجيش من عنده، فقصد أذربيجان، والتقاء ملكها ملكشاه بن محمود وتصافا، وقصدهما محمد شاه بن محمود بعساكره فانهمز سليمان شاه بجيشه وعاد طالباً العراق، فوقف له كوجك صاحب الموصل على رأس الدربند، فلما اجتاز سليمان شاه به قبض عليه كوجك، وعلى خوارزم شاه أخي زوجة سليمان شاه، وأعتقلهما بالموصل، وذلك في سنة إحدى وخمسين، واستديمت الخطبة ببغداد لسليمان شاه مع اعتقاله، وفيها مات الملك مسعود، سلطان الروم ابن قلج أرسلان، وهو هو نور الدين محمود بن زنكي، وفيها ولي نور الدين محمود مجد الدين أبا بكر بن الداية حلباً وجميع بلادها، وفيها ولي نور الدين محمود أسد الدين شيركوه دمشق وأعمالها.

## ودخلت سنة اثنتين وخمسين

فيها فتح نور الدين محمود بانياس، وتسلم قلعة شيزر، وفيها نزلت الفرنج شيزر، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وفيها توفي صلاح الدين الشيخ بحمص، وكانت حماه له قبل ذلك، وفيها كانت الزلزلة الكبيرة المعروفة بزلزلة حماه، هدمت حماة، وشيزر، وبعض طرابلس واللاذقية وجبله ومصيف، والقدموس وغيرها، ونبت عين حارم ماء أحمر كالدم، وخسف بخمس ضياع من اللاذقية، غابت في الأرض، وخرب من حلب شيء كثير، وإنما عرفت هذه بزلزلة حماه لأن أثرها فيها كان أكثر من غيرها، وكانت في ثالث يوم من رجب.

وفيها ولد الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله تعالى، وفيها مرض نور الدين محمود مرضاً شديداً بحلب حتى أشرف على الموت، فسمع أخوه نصره الدين بمرضه فقصد حلباً، فأمر مجد الدين بن الداية بغلق الأبواب في وجهه، فصاح نصره الدين في باب قنسرين: أنا مثل أحدكم لم تغلقوا الأبواب في وجهي فكسر العوام باب المدينة ودخل نصره الدين المدينة وقت العصر، وجاء إلى تحت القلعة وصاح إلى مجد الدين بن الداية وهو وأبي قلعة حلب: إن كان أخي نور الدين في عافية فأنا غلامه وجميع العساكر عبيده، وإن كان أصابه شيء فأني معنى ترموني بالنشاب، فرموه بالنشاب، فحلّف نصره الدين أهل حلب أن يكونوا يداً واحدةً فحلفوا له، ونهبوا دار الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وأدر جماعة، وبقي باب القلعة مغلقاً على نور الدين، ومجد الدين ستة عشر يوماً، ولم يخطب بجامع حلب خطيب، وجمع المؤذنين على أذان حيّ على خير العمل، ففعلوا، وبقي السنة واقفون مع الحلبيين مع نصره الدين، وتحالف أهل حلب على أن عدوهم مجد الدين بن الداية، ففصل أسد الدين شيركوه من دمشق، فصعد القلعة وتوسط أن يأخذ نصره الدين حرّان وعشرة آلاف دينار أميرية، ويمضي إليها بغير اختيار الحلبيين، فرضي نصره الدين بذلك، ورحل إلى حرّان، وترك الحلبيين وشأنهم.

### ودخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها كان المقتفي لأمر الله بايع لابنه المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بولاية العهد، فلما دخلت سنة ثلاث وخمسين قتل عامل للمقتفي على نهر ملك يعرف بالجويري، فتحدث الناس أن الجويري قتل بوضع من ولي العهد يوسف، ووقر في ذهن المقتفي شيء من ذلك، فكتب المقتفي، إلى وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة رقعة: « يا يحيى قد تحقق عندي أن الجويري قتل بوضع من ولدي أبي المظفر يوسف، وإني مراجع في نفسي

في نقض عهده، وجعل الخلافة في أخيه أبي علي فما ترى في ذلك؟» فكتب إليه الوزير عون الدين: «العبد يقبل الأرض ويعفر الخد، ويسأل مولانا، إمام المسلمين، وأمير المؤمنين ثبت الله دعوته، التثبت فيما عرض له، فإن الدعوة قد سارت في أقطار الأرض بولاية عهده لولده وقد أخرجت في ذلك أموال جمّة، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يأخذه بقول متحريض وإش، فقد قيل في الشك رب وإش غاش، والرأي أسمى وأعلى». فلما وقف المقتضي على جواب عون الدين أغضى وصفح عن ولده أبي المظفر يوسف، وبهذا الجواب الصادر عن عون الدين، انتفع عون الدين به نفعاً عظيماً حين أفضت الخلافة إلى يوسف المستنجد بالله، فإنه وقف على هذه الورقة بخط عون الدين، فشكره على صنيعه، وأعفاه من الوزارة بعد أن طلبه لها، وألح عليه فلم يفعل، وأكرمه واحترمه، وشكر له ذلك.

### وفيهما وهي سنة ثلاث وخمسين

مات بدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن الخجندي، رئيس أصفهان ومفتيها، وفيها مات ابن منير الشاعر الطرابلسي، كان شاعراً مقلماً مجوداً، وله ديوان مشهور وأخبار مستطرفة معروفة، وفيها مات القيسراني الشاعر، كان شاعراً مجوداً.

### ودخلت سنة أربع وخمسين

فيها مات السلطان محمد شاه بن محمود.

### ودخلت سنة خمس وخمسين

فيها مات ملكشاه. وفيها أفرج علي كوجك على سليمان شاه بن محمد، وخطب له بالسلطنة، وفيها في رجب مات الفائز صاحب مصر، وكان

صبيّاً عمره احدى عشرة سنة، والمدبر أمرة طلائع بن رزيك، وأقام مقام الفائز العاضد، وهو صبي، وفيها في أول شوال، اتفقت العساكر بباب همدان على القبض على سليمان شاه، فقبضوا عليه وخطبوا لرسالن شاه ابن طغرل وكان بكنجة، وقطعت خطبته ببغداد في محرم سنة ست وخمسين، وفيها - وهي سنة خمس وخمسين - توفي المقتفي لأمر الله في مستهل ربيع الأول من السنة، فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبا المظفر، وأبا جعفر.

### خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله

ولد في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وخمسة، أمه أم ولد تدعى طاووس، ببيع بالخلافة في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسة وكان مهيباً عالماً، أظهر السيرة الجميلة في ولايته، ورد الأموال المغصوبة إلى أهلها، وأسقط المكوس والضرائب ببغداد، وكانت مضمنه في كل سنة بجملة عظيمة، ولما ولي الخلافة خافه عون الدين ابن هبيرة الوزير للمقتفي، فجمع منه ومن ولديه ثلاثين ألف دينار وحملها مع غلمانها إلى المخزن الشريف، وسأل قبولها وكتب صحبتها: « العبد كان في مبدأ أمره حاملاً الذكر، وضيع القدر، قدم إلى دار الخلافة المعظمة، وليس له من عرض الدنيا شيء سوى قميص وعمامة يساويان ديناراً يستتر بهما، فسما ذكره ورفع قدره بما شمله من الانعام النبوي، والآن فهو يضرع ويسأل مولانا أمير المؤمنين أن يأذن له في لزوم زاوية مسجد، يعبد الله سبحانه فيه، ويدعو لأيامه الزاهرة، والرأي أعلى وأسمى » فقبل ما حمله، وكتب المستنجد بالله الجواب بخطه: « وقفنا على ما ذكره، وشكرنا سعيه، فأما ما سأله في اعتزاله فلا، لكونه شقيقاً علينا، خالصاً في محبتنا من شبه الريب، حافظاً لنا بالغيب، وهو أحق بمجلسه ممن سواه، ومن يك رأيه

فينا هذا فهو أحرى أن يحفظ ويلحظ، « ثم بعث إليه بالرقعة التي كتبها إليه المقتفي - أبوه - وقد ذكرناها، وفيها جوابه إلى المقتفي أن لا يغير عليه ذلك، ولا يستبدل به أحداً، فعلم الوزير أن الله سبحانه نفعه بحسن سفارته ومشورته، وينبغي كل واحد أن لا يصدر منه إلا خير في حق أعدائه فكيف بأوليائه، ويتوكل على الله سبحانه في جميع أموره، ففيه كفاية.

### ودخلت سنة ست وخمسين

فيها : قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك، قتله سبعة أنفس من الحاشية قطع أرزاقهم في دهليز القصر، وولى العاضد موضعه ولده رزيك الوزارة، ولقبه الملك العادل مجد الاسلام وخلع عليه، وكان الصالح طلائع متشيعاً موالياً لأهل الحسين عليهم السلام ، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور، من جملة شعره قصيدته التي وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي التي أولها:

مدارس آيات خلعت من تلاوة

ومنزله وحى مقفر العرصات

وأول قصيدة طلائع:

أعاذل دع لومي على صبواتي

فهامات يمحوه الذي هوأتي

وما جزعي من سيئات تقدمت

ذهاباً إذا أتبعتهما حسناتي

إلا أنني أقلعت عن كل شبهة

وجانبت غرقى أبحر الشبهات

شغلت عن الدنيا بحبي المعشر

بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وقال في آخرها:

أعـارض من قول الخزاعي دعبل  
وإن كنت قد أقللت من مدحاتي  
مدارس آيات خلست من تلاوة  
ومنزل وحي مقفر العرصات

ولما ولي رزيك بن طلائع أظهر العدل، وتمكن من الدولة، فأشير عليه بعزل شاور السعدي وكان أبوه طلائع ولاء الصعيد الأعلى، فقبل منهم وكتب كتاباً إلى شاور يستدعيه فأوجس في نفسه خيفة وكتب إلى رزيك كتاباً أظهر فيه الطاعة واستعطفه وذكره بسابق خدمته، فلما وقف رزيك على كتابه شاور أهله فيه، فقالوا: إن أبقيته طمع فيك فخالفهم وقال: المصلحة تركه، فقالوا: لا بد من عزله فأحضر رزيك نصير الدين بن شيخ الدولة، وولاه قوص، وكتب على يده كتاباً إلى شاور يأمره بتسليم قوص إليه، واستدعاه إليه، فلما وصل نصير الدين إلى أخميم بعث كتاب رزيك إلى شاور، فلما وقف عليه بعث إلى نصير الدين يقول له:

أنت صاحبني فارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فعاد نصير الدين إلى القاهرة، وجاهر شاور حيثنذ بالعداوة والعصيان، وأحضر خلقاً من العرب وخالفهم فحشد وقصد مصر ومعه خلق فانهزم رزيك بخاصته وأمواله متشتتين في كل ناحية وأخذ رزيك نحو جهة القبلة، فوصل إلى جزيرة تعرف بسليمان بن البيص اللخمي، فقبض عليه أهلها، وأعلموا سليمان به فسجنه وسار بليته إلى شاور وعرفه بقبض رزيك فبعث شاور خمسين فارساً فقبضوا على رزيك وأتوه به مقيداً، وأما شاور فإنه دخل القاهرة، وحضر بين يدي العاضد فخلع عليه، وحنكة، واستوزره، ولقبه أمير الجيوش، وحلف له واستحلف الناس له.

## وفيهما وهي سنة ست وخمسين

حج أسد الدين شيركوه وبث في الحرمين معروفاً كثيراً، وحج في هذه السنة علي كوجك صاحب الموصل.

## ودخلت سنة سبع وخمسين

فيها: استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام، وتبعه الضرغام ليدركه فلم يدركه، فلما عاد الضرغام استوزره العاضد وحنكه ولقبه الملك المنصور، وقتل الضرغام من الأمراء الذين كاتبوا شاور ما يزيد على سبعين أميراً سوى أتباعهم.

## ودخلت سنة ثمان وخمسين

فيها: خرج شاور إلى الشام، ووصل إلى دمشق، واجتمع بنور الدين محمود، ووصف له ديار مصر، وضعف أهلها، وضمن له إن بعث معه عسكرياً أخذها له، فندب نور الدين محمود أسد الدين شيركوه لذلك، فسار أسد الدين، وشاور في خدمته، إلى أن أتوا بلبليس وأخذها، ثم أخذ مصر فلما رأى شاور ذلك دبر نفسه، وأصلح شأنه، مع المصريين سراً ورام إخراج أسد الدين، فلم يطبق إلا بمظاهرة الفرنج، فكتب ملك الفرنج - صاحب القدس - وأمراء الساحل من الفرنج وضمن لهم أموالاً، إن هم جاؤوا إلى مصر وأخرجوا أسد الدين، فأتوا مصر وانحاز أسد الدين إلى بلبليس وتحصن بها، ثم قرر شاور للفرنج على إخراج أسد الدين أربعمئة ألف دينار مصرية، وهادنهم بعد هذه القطيعة خمس سنين، ونزل الفرنج على بلبليس وحاصروا أسد الدين ثلاثة أشهر، وبنوا على بلبليس برجاً، وزحفوا إليها، هذا كله وأسد الدين لم يقاتلهم، ثم راسلهم أسد الدين في الصلح، على أن يخرج بنفسه وعساكره إلى الشام مودعاً فأجابوه، وحلفوا، فخرج أسد الدين ومن معه إلى الشام، وأخذ

شاور يحث الفرنج على أن يحملوا على أسد الدين ويقللهم في أعينهم فقالوا:

لانفعل لاطافة لنا بقتاله هو رجل عظيم، ومعه أبطال، ووصل أسد الدين سالماً إلى الشام، وأما شاور فإنه لما عاد إلى مصر، وأحاط بها، علم الضرغام أنه قد أحيط به في القصر، فصاح: يامولانا، يامولانا، فلم يجبه أحد، وبرزت إليه رقعة فيها: « خذ لنفسك وانج بها » فخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه، وقتلوا أخويه معه: ملهماً والحسام.

### وفيهما وهي سنة ثمان وخمسين

خرج عبد المؤمن بن علي من مراکش إلى سلا ، فتوفي بها في العشر الأواخر من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكانت ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وشهراً، وخلف خمسة عشر ولداً ذكراً، وكان حسن السيرة محموداً في مملكته، ولما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال: إن ابني محمداً لا يصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فبايعوه، ودعوه بأمر المؤمنين، فلما مات عبد المؤمن كتبوا موته وحملوه إلى مراکش ثم أظهروا موته، واستقرت ولاية أبي يعقوب يوسف، وكان فقيهاً عالماً حافظاً، وسار بالناس السيرة الجميلة، وفيها كسرة الفرنج نور الدين محمود على البقعة بكبسة تحت حصن الأكراد.

### ودخلت سنة تسع وخمسين

فيها مات جمال الدين محمد ابن الأصفهاني وزير الموصل المشهور بالكرم والإفضال، وحمل تابوته إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفن بها، وفيها مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، صاحب كتاب الافصاح عن معاني الصحاح، ذكر في أوله خلافيات المذاهب الأربع، وكان عالماً، عفيفاً، محباً لأهل العلم، محسناً إليهم ، وزر

لخليفتين سبع عشرة سنة، وفيها فتح نور الدين بانياس، وحراراً من الفرنج.

### ودخلت سنة اثنتين وستين

فيها: سار أسد الدين بجيش كثيف إلى مصر في ربيع الأول منها، ونزل بالجيزة، وأقام محاصراً لها نيفاً وخمسين يوماً، ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستنجد شاور بالفرنج، وأذن لهم أن يدخلوا مصر لنجدته، فقدموا قاصدين حرب أسد الدين، فلما عرف أسد الدين مجيئهم رحل من بين أيديهم إلى موضع يعرف بباب البابين، وعبأ أصحابه فيه، وجرى بين أسد الدين والفرنج وبينهم حروب نصر بها المسلمون عموماً والملك الناصر صلاح الدين وأصحابه خصوصاً وقتلوا من المصريين والفرنج ألفاً، وأسروا سبعين فارساً من بارونيتهم، ثم قصد أسد الدين وصلاح الدين الاسكندرية فدخلوها ووجدوا أهلها مساعدين لهم على الفرنج والمصريين، وأقام الفرنج بالقاهرة، حتى استراحوا وجددوا آلات الحرب، وولى أسد الدين الاسكندرية صلاح الدين، وتوجه أسد الدين إلى الصعيد فجبى خراجه، وتوجه الفرنج إلى الاسكندرية وحاصروا صلاح الدين بها أربعة أشهر، فلم يظفروا، وجمع أسد الدين الجموع وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلما قرب منهم رحلوا عن الاسكندرية، وأما شاور فإنه عند ذلك راسل أسد الدين وهادنه على أن ينصرف عنهم إلى الشام، فطلب أسد الدين منهم عوض ما غرمه فبدلوا خمسين ألف دينار، وأجابوه إلى كل ما سأل، فبعث أسد الدين إلى صلاح الدين وهو بالاسكندرية يستدعيه فأتاه وعاد إلى الشام.

### ودخلت سنة ثلاث وستين

فيها: أنعم نور الدين محمود على أسد الدين بحمص وأعمالها فمضى إليها وتسلمها.

## ودخلت سنة أربع وستين

توجه الفرنج إلى مصر، وسببه أنهم لما دخلوها مرتين قبل ذلك اطلعوا على معاييبها ومقاتلتها وجهاتها فطمعوا في أخذها، وجمعوا جمعاً عظيماً، ومضوا إليها في المحرم من عسقلان، فلما وصلوا إلى بلبس حاصروها وملكوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم نزلوا على القاهرة، ومقدمهم الملك أمري، فقال شاور لأصحابه: أيجب الملك أن بلبس جبنة يأكلها فبلغ أمري ذلك، فبعث إليه أمري: نعم بلبس جبنة، والقاهرة زبدة، فلما حاصروا القاهرة أحرق شاور مصر خوفاً عليها فلما ضايقوها بالحصار أرسل شاور إلى الملك أمري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها معجل وبعضها منجم، فأجابه أمري وحلف على ذلك، فعجل له شاور مائة ألف دينار، ومطله بالباقي، وكاتب نور الدين محمود يستصرخ به وسود كتبه وجعل في باطنها شعور النساء وذوائهن، وواصل كتبه بذلك إلى نور الدين محمود، وهو يومئذ بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، وجمع هو ونور الدين جمعاً عظيماً ومضيا إلى دمشق، وعرضوا العساكر على الفوار، ثم دخل أسد الدين إلى مصر، ومعه سبعون ألفاً أو قريباً منها، فلما بلغ الفرنج مجيء أسد الدين رحلوا عن مصر صاغرين، عائدين إلى الساحل، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الإيوان، وخلع عليه، ومعه صلاح الدين، وأقام شاور بضيافة العساكر وأكثر التردد إلى خدمة أسد الدين وطلب أسد الدين منه مالا ينفقه على الأجناد، فهاطله به، فبعث إليه الفقيه عيسى بن محمد يقول له: إن الأجناد طلبوا نفقاتهم، وماطلت بها، وقد تغيرت قلوبهم عليك، فإن أتيتني فكن على حذر منهم، فلم يؤثر ذلك شيئاً عند شاور وركب على عادته وجاء إلى أسد الدين مسترسلاً، فاعترضه صلاح الدين يوسف، في الأمراء النورية، وقبض عليه فجاءه من القصر من يطلب رأسه، فقتل

وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر ، من هذه السنة، وقلد العاضد أسد الدين الوزارة، وكتب العاضد عليه بخطه ما نسخته: « هذا عهد لم يكتب لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله تعالى بما أوضحه لكم من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بخدمتك بنوة النبوة، واتخذ للفوز سييلاً، «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً» ( النحل: ٩١) .

ونسخة أول المنشور: « من عبد الله ووليه أبي محمد عبد الله بن يوسف الحافظ، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى الله كلمته:

سلام عليكم ، فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على جدي محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، ويسلم تسليماً» ثم يتلو كذلك خطبتان بليغتان فيهما مواعظ ووصايا وتقليد الوزارة، وتدبير الدول بألفاظ حسنة طويلة اختصرناها في هذا المختصر.

وفيها: توفي أسد الدين شيركوه بعد وزارته بخمسة وستين يوماً، وكانت وفاته في يوم الأحد ، ثاني عشرين جمادى الآخرة من السنة ، وكانت مدة مرضه يوماً وليلة، وعمل له بالقاهرة عزاء عظيم، وفيها ولي الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله الوزارة للعاضد بمصر، وذلك أن أسد الدين لما توفي سأل العاضد أصحابه عن عسكر أسد الدين ومن فيه يصلح للوزارة . فقيل له: شهاب الدين

عمود خال الملك الناصر صلاح الدين، فأحضره، وقال أريد أوليك مقام  
أسد الدين، فقال لا أصلح لها، وإنما يصلح لها ابن أختي، صلاح  
الدين يوسف، وكان بموافقة الأمراء النورية وغيرهم فعقد العاضد  
الوزارة لصلاح الدين، وخلع عليه، وكتب له منشوراً ولقبه الملك الناصر،  
واستقل الملك الناصر في تدير الدول . وفيها قتل الخصي الأسود  
المعروف بمؤتمن الخلافة، وكان زمام قصر الخلافة، ومطاعاً فيهم، فاتفق  
مع جماعة غلمان القصر أن كاتبوا الفرنج مستدعين لهم إلى مصر  
ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر وأصحابه من مصر، وبعثوا  
بالكتاب مع إنسان خفية، فاتفق أن بعض التركمان رأى ذلك الإنسان  
ومعه نعلان جديدان فاستنكرهما، وأخذ النعلين منه على سبيل الامتحان  
وجاء به إلى الملك الناصر، فأمر بفتق النعلين فوجد في طباقها خرقاً  
مكتوبة، وإذا فيها مكتوب من القصر إلى الفرنج يستدعونهم إلى قتال  
الملك الناصر فقال الملك الناصر: دلوني على كاتب هذا الخط، فدلوه على  
رجل يهودي، فأحضره، فلما رأى الكتابة تلفظ بالشهادتين خوفاً من  
العقوبة، واعترف أن الخط خطه، وأن مؤتمن الخلافة أمره بكتابة ذلك،  
فأطلقه الملك الناصر لا سلامه، وأخفى الملك الناصر ذلك وجعل  
مؤتمن الخلافة لا يخرج من القصر، وإن خرج لا يبعد، فخرج يوماً متنزهاً  
ظناً منه أن ما فعله نسي، فبعث الملك الناصر جماعة قتلوه وأخذوا رأسه،  
ولما قتل مؤتمن الخلافة غضب السودان لقتله، وتجمعوا في خلق كثير  
يزيدون على خمسين ألفاً، وكانوا ذوي شوكة ما تمالؤوا على وزير إلا  
قتلوه، فباشر الملك الناصر صلاح الدين قتلهم بنفسه وعساكره، فقتلهم  
واستباح دماءهم، وهرب من سلم منهم، وكان لهم محلة كبيرة على باب  
زويلة تسمى المنصورة، فأمر الملك الناصر بتغذية أثرها فخربت،  
وجعلت بستاناً.

## ودخلت سنة خمس وستين

فيها: كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب، حدثت في بكرة يوم الاثنين ، ثاني عشر شوال، بعد طلوع الشمس، وتعرف في الشام بزلزلة حلب، لأن تأثيرها في حلب أكثر من بقية البلدان، وهلك تحت الردم بحلب على ما روي خمسة عشر ألف آدمي، واضطربت قلعة بعلبك، وتهدم بعضها، وتهدم حصن شيزر، وجانب من قلعة حماه، وقطعة من حصن الأكراد، وحصن بارين ، وانشقت منارة حلب، وانشق جبل لبنان شقاً عظيماً مسيرة ثلاثة أيام ، وروي أن طولها لا يعرف له منتهى، وقيل إنها عمت أكثر الأرض حتى جاءت من سبته من بلاد المغرب، وفيها نزل الفرنج دمياط في مستهل صفر، فأقاموا عليها أحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين، وفيها توجه الأوحى نجم الدين أيوب، والد الملك الناصر صلاح الدين إلى مصر، ولما عزم على ذلك فرق جميع أمواله وأملاكه، ولم يكن له سهم في ملك له فيه شريك إلا وهب شريكه سهمه، ولم يستصحب معه شيئاً من موجوده، بل أطلقه، وعجب الناس من فرط كرمه وسخائه، فلما قرب من مصر خرج للقائه العاضد بنفسه، والملك ، ومن دونها، وكان يوماً مشهوراً، ودخلها في رابع وعشرين رجب من السنة ، وفيها حاصر نور الدين محمود سنجار وأخذها صلحاً بعد قتال شديد.

## ودخلت سنة ست وستين وخمسة

فيها: أمر نور الدين محمود ببناء الجامع النوري، المعروف بالجامع العتيق بالموصل، وفيها توفي المستنجد بالله في تاسع ربيع الآخر من السنة، فكانت خلافته إحدى عشرة سنة وسبعة أيام، وخلف من الولد أبا محمد حسن المستضيء بأمر الله، وأبا القاسم، وكان رحمه الله عالماً حسن المحادثة، كثير الفكاهة، قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه

الله: حدثني ابن شبيب قال: لقيني أمير المؤمنين المستنجد بالله فقال مصحفاً علي: أين شئت؟ فقلت مصحفاً: عندك يا أمير المؤمنين، وهذا أحسن ما يكون من التصحيف، وأراد المستنجد بقوله: أين شئت، ابن شبيب كأنه يناديه، فأجابه ابن شبيب بقوله: عندك، أي عبدك يا أمير المؤمنين.

### خلافة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله

بويح بالخلافة يوم وفاة أبيه في تاسع ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسة، وكان عالماً فاضلاً ذا سياسة وتدبير، أظهر العدل والإحسان، ورد أملاكها كانت غصبت إلى ملاكها، ونشر العدل والانصاف، وأمر منادياً ينادي بكشف الظلمات، وفيها جهز نور الدين محمود بن زنكي الشيخ شرف الدين أبا سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون رسولاً إلى المستضيء مهنياً له بالخلافة.

### ودخلت سنة سبع وستين

فيها مات العاضد صاحب مصر في يوم عاشوراء، وكان صلاح الدين أمر بالخطبة للمستضيء بأمر الله في أول جمعة من المحرم بمصر، ثم مات العاضد بعده بيوميات، ثم خطب للمستضيء بالقاهرة في ثاني جمعة، وانقضت دولة المصريين، وتسلم صلاح الدين القصر بما فيه من الأموال والذخائر، وقبض على جميع أهل العاضد وولده وأقاربه، وجعلهم في موضع، وأجرى عليهم مؤنتهم. وفيها وردت البشائر من الملك الناصر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بإقامة الدعوة المستضية والخطبة له، وموت العاضد، فاشتد سرور نور الدين، وجهاز شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رسولاً إلى بغداد، مبشراً بالدعوة القائمة بمصر، والخطبة للدولة العباسية في الخلافة المستضية.

وفيهما ولد الملك المنصور أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب في ذي الحجة ، وفيها ولد الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين.

### ودخلت سنة ثمان وستين

فيها توفي الملك الأوحده نجم الدين أيوب والدة الملك الناصر صلاح الدين يوسف، في سابع عشرين ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلًا بعد ستين إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنا بها.

### ودخلت سنة تسع وستين

فيها : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، رضي الله عنه، في شوال بدمشق، ودفن بها، وكان رزؤه عظيما في ركن المسلمين، بعد أن أثر في الاسلام المآثر الحميدة، والآثار الجميلة، وهي أشهر من أن تذكر ، ولما توفي رثاه العماد الكاتب الأصفهاني فقال:  
عجبت من الموت كيف اهتدى  
إلى ملك في سجايا ملك  
وكيف ثوى الفلك المستدير  
في الأرض والأرض وسط الفلك

وصدروا كتابا من ولده الملك الصالح اسماعيل تعزية إلى الملك الناصر صلاح الدين، انشاء العماد الكاتب، ثم توجهوا بالملك الصالح إلى حلب صحبة الأمير كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل بن الخازن.

وفيهما فتح شمس الدولة ابن أيوب اليمن بعساكر الشام، وقبض على مدعي الخلافة بها يومئذ، رجل يسمى عبد النبي بن علي بن المهدي.

### ودخلت سنة سبعين

فيها كاتب كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل الخازن الأمير سيف الدين غازي، صاحب الموصل في تسليم حلب إليه، واستحثوه سرأً، وكان ذلك بوضع من الأمير شمس الدين بن المقدم ورجالته، فبلغ الملك الناصر صلاح الدين ذلك، فخرج من مصر إلى الشام، ووصل إلى دمشق فتسلمها، ثم خرج إلى حمص، فعصت قلعتها عليه فتوجه إلى حماه فتسلمها في جمادى الآخرة من السنة، وسار إلى حلب، فحاصرها جميع الشهر، ولما أشدت الحصار عليهم استغاثوا بالاسماعيلية، ووعدوهم، فجاء منهم جماعة، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين، فقتلوه وقتلوا جماعة من الناس، ثم قتلوا عن آخرهم. وعاد الملك الناصر إلى حمص، فنزلها ونصب عليها المجانيق، وحاصرها بقية شهر رجب وتسلمها في شعبان بعد قتال شديد، ثم توجه إلى بعلبك فتسلمها أول شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

وأما الحلبيون فإنهم خرجوا جميعهم إلى حماه وحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها، وتزاحف الفريقان، ونصر الملك الناصر عليهم، وتعرف هذه الكسرة بكسرة المواصلة. عند قرني حماه، ولما كسروا أمر الملك الناصر بحقن دمائهم، ونهب أموالهم، ثم تقدم إلى تل السلطان من عمل حلب، ووقع الصلح بينه وبين الحلبين على أن يكون ما بيده من الشام إلى آخر بلد حماه والمعرة وكفر طاب مضافتان إليه، وحلفوا على ذلك، وعاد الملك الناصر إلى حماه، فنزل عليها، ووصلته رسل المستضيء بالله بالتهنئة بالظفر والتشريفات السنية،

والتحف الجليلية، وأفيض على الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعة جميلة ، أفردت له من الديوان العزيز.

ثم تجهز الملك الناصر إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد، وأقطع حماة خاله شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على الأمير ناصر الدين محمد، وتوجه إلى دمشق.

### ودخلت سنة احدى وسبعين

فيها تجهزت المواصلة ووافوا تل السلطان، في جمع عظيم، فخرج إليهم الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان، وألقى الله على المواصلة الرعب، وقذفه في قلوبهم، فولوا مدبرين، واستولى الملك الناصر عليهم أسراً ونهباً، وحقق دماءهم، واستولى على سراق سيف الدين غازي، ونزل فيه، ثم أحضر أسراهم، وخلع عليهم وأطلقهم. وفيها: فتح الملك الناصر منبج، واستولى عليها بعد كسره المواصلة بتل السلطان. وفيها فتح حصن أعزاز، بعد أن هزمت المواصلة ، وحاصره ثمانية وثلاثين يوماً. وفيها قفز على السلطان قوم من الحشيشية، وجرحه واحد منهم في وجهه، وكان ذلك في حصار أعزاز، وقتلوا عن آخرهم.

وفيها عاد شمس الدولة من اليمن إلى الشام، بعد أن قتل ناشر بن بلال صاحب عدن، وفيها هدم أمير الحاج كمشتكين حصن أبي قيس بمكة.

وفيها مات نجم الدين بن حسام الدين ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين مكانه. وفيها قتلت الاسماعيلية أبا صالح بن العجمي بحلب في يوم الجمعة بباب الجامع الشرقي. وفيها توفي شيخ الاسلام هبة الله بن البوقي، المفتي الشافعي الواسطي، صاحب القاضي أبي علي الفارقي.

## ودخلت سنة اثنتين وسبعين

فيها مات السلطان طغريل بن مسعود.

وفيها حاصر الملك الناصر حلباً مديدة، ثم وقع الصلح العام بينهم وبين المواصلة وبينه، وأبقى الملك الناصر حلباً في يد الملك الصالح اسماعيل، ورد عليه حصن أعزاز، وعاد الملك الناصر إلى مصيف، ونصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم وتخريب ديارهم، فتضرعوا إلى خال الملك الناصر شهاب الدين محمود بن تكش، فسأل فيهم، فرحل عنهم، ثم توجه إلى دمشق، ومضى إلى مصر، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط على القاهرة ومصر، وبانشاء القلعة بجبل المقطم، وبناء المدرسة على تربة الشافعي رحمة الله عليه، وفوض نظرها إلى الشيخ نجم الدين الخبوشاني، ثم توجه الملك الناصر في هذه السنة إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي رحمه الله، فكان يتردد إليه لسماع الحديث في يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت، فأقام لذلك مدة، ثم عاد إلى مصر. وفيها توفي قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي دمشق.

## ودخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كانت نوبة عسقلان والرملة: خرج الملك الناصر للقاء الفرنج، فنزل عسقلان وسباهم وقتل جمعاً منهم، ثم استقل بالرملة طالباً بلاد الفرنج، فخرجت الفرنج على المسلمين، وجرى بينهم قتال عظيم هلك فيه جمع من المسلمين، وضلوا عن الطريق، وماتوا جوعاً وعطشاً، وأسر الفرنج الفقيه عيسى وأخاه ظهير الدين علي، وأقاما أسيرين سنتين حتى اقتداهما الملك الناصر بسبعين ألف دينار، ودخل الملك الناصر إلى القاهرة وقد دفع الله سبحانه عنه بلاءه، بعد أن أشرف على الهلاك. وفيها توفي شهاب الدين محمود بن تكش خال الملك الناصر.

## ودخلت سنة خمس وسبعين

فيها توفي المستضيء بأمر الله في أول ليلة من ذي القعدة، فكانت خلافته تسع سنين ونصف وواحد وعشرين يوماً، وخلف من الأولاد الامام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد، وأبا منصور.

## خلافة الامام الناصر لدين الله تعالى أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله

مولده في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، ببيع في أول يوم من ذي القعدة سنة خمس وسبعين، وكان المتولي لعقد البيعة ذو الرئاستين مجد الدين أبو الفضائل بن الصاحب استاذ الدار، وظهير الدين أبو بكر بن العطار، صاحب المخزن، ثم بعد ثلاثة عشر يوماً، قبض على ظهير الدين أبي بكر، ثم مات بعد أيام قلائل، فمضت أخته لتدفنه ليلاً خلصة من الناس لشدة بغضهم له أنه ضمن جهات المكوس، وكان يمنع من نقل الغلال في سني المحل، فلما خرج تابوته من باب النوي علم به بعض العوام، فألقوه عن رأس الحمالين، وكسروا التابوت، ومزقوا أكفانه وربطوا في رجله حبلاً وسحبوه في الأسواق، وقطعوا خنصره وأذنه، وذلك في نصف ذي القعدة.

وفيها استدعى الامام الناصر لدين الله فخر الدولة بن المطلب، وطلب منه أن يستوزره لعلمه وورعه، وكان المستنجد والمستضيء طلباه للوزارة فامتنع، فلما حضر بين يدي السدة الشريفة قبل الأرض وخدم وقال: يا أمير المؤمنين المملوك رجل شيخ ما يجوز له أن يفتح كتاباً بعد العصر، فقال له بهاء الدين صندل الخادم: أجب أمير المؤمنين، فقال: له فخر الدولة: ليس لك في اجابتي مصلحة لأنني لو قبلت هذه الولاية ما كنت أفرك على ما بيدك من الاقطاع والولايات، بل كنت أجريك على

قاعدة بلال الحبشي، وأزيل عنك هذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيوف مشهورة ، فضحك الامام الناصر وأعفاه وقال: تشير علينا بمن يصلح، فقال: هذا يصلح، وأشار إلى مجد الدين بن الصاحب فضاقت صدر مجد الدين لقوله وقام، فقال له الامام الناصر: لم لا يرضيك قوله والوزارة أرفع درجات أرباب الدهاء؟! فقال: يامولانا لا أبيع حضوري في هذه الخدمة بالدنيا وما فيها، وسأل أن يقر على خدمته، فأقره عليها، وقال لفخر الدولة بن المطلب: أشر علينا بمن نوليّه، فقال: إن رأى مولانا أن يولي سليمان بن جاووش نائبا ووزارة، فرأيه أولى وأعلى، فأمر الامام الناصر باحضار سليمان بن جاووش، ويلقب بحسام الدين، فأحضر، وخلع عليه ورتب نائبا ووزارة فأقام كذلك أشهراً.

### ودخلت سنة ست وسبعين وخمسة

فيها حسن مجد الدين بن الصاحب للامام الناصر عزل سليمان بن جاووش تكبر سنه، وتقدم إليه الامام الناصر أن يستبدل به من شاء، فأحضر مجد الدين بن الصاحب جلال الدين أبا المظفر هبة الله بن محمد ابن البخاري وولاه نائبا ووزارة. وفيها تصدق الامام الناصر بعشرة آلاف دينار في شهر رجب على الفقهاء والعلماء والصوفية ببغداد وأثبت أساميهم في دستور، وقرر ذلك في كل رجب في كل سنة، وجعل ذلك عوضاً عن دعوة كانت الخلفاء تأمر بعملها للمذكورين في كل سنة في رجب في دار دفن المستضيء بها.

وفيها أسقط الامام الناصر ببغداد وجميع بلاده من المكوس والحقوق المضروبة على التجار وأرباب الصنائع والمؤن، وكان قدر ما يحصل منها في كل سنة ما يزيد على مائة وخمسين ألف دينار، وبسط العدل ونشره، وأمر بكسر الملاهي وإزاحة الخمر، وإقامة الحدود.

وفيها توجه الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الأرمن وبلد الروم ، فنزل على حصن يقال له المناقير ببلاد الأرمن ، ففتحته ثم هدمه ، وصاحب الأرمن يومئذ ابن لاون، ثم وقع الصلح بينهم على خمسمائة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، وعاد الملك الناصر إلى حمص فنزل عليها، وأتته رسل الحلبيين مهنتين له بالنصر والظفر، وأتته رسل الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم، وشهاب الدين بشير الخادم، فاجتمعا بالملك الناصر بدمشق ومعهما التفويض والتقليد والتشريف له بتقليد السلطنة والزعامة فركب الملك الناصر بالتشريف، وكان يوماً مشهوداً، ثم أعاد الملك الناصر شهاب الدين بشير الخادم إلى بغداد وأصبحه رسولاً معه وهو القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري جواباً عن رسالة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم، وجعل الملك الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم عنده، ثم سار الملك الناصر ومعه شيخ الشيوخ إلى الديار المصرية، لزيارة قبر الامام الشافعي، فلما قضى زيارته توجه إلى مكة حرسها الله تعالى.

وفيها مات شمس الدولة بن أيوب بالاسكندرية في مستهل صفر، وفيها بنيت قلعة القاهرة.

### ودخلت سنة سبع وسبعين

فيها توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي. وفيها وصل إلى حلب عز الدين مسعود صاحب الموصل، فاستولى عليها وعلى خزائنها، ورغب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في حلب، وتعوض منه عنها سنجار لعلمه أن أمره لا يستقر بحلب، ولما بلغ الملك الناصر ما جرى في أمر حلب، قلق لذلك، وكان بالديار المصرية، فكتب إلى الملك المظفر تقي الدين وكان بحماه يأمره بالتوجه إلى حلب، وكتب كتاباً إلى الديوان العزيز يشكو صاحب الموصل وما فعله،

وطمعه في أخذ حلب، وذكر عصيانه ومساويه، وعرض في كتابه بأن هذا الذي صدر منه لا يصدر إلا عن اذن شريف، وسأل فيه ردعه وزجره وإزالة يده عن حلب.

وفيها بعث الملك الناصر أخاه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين إلى اليمن، فتوجه إليها بجيوشه ، وكان ولي عدن يومئذ الأمير عثمان الزنجيلي، ووالي زبيد الأمير حطان بن منقذ، فأما عثمان فإنه فارق اليمن وهرب منها ، وأما حطان فإنه تحصن بقلعة يقال لها قوارير، ثم راسل سيف الاسلام في ذهابه إلى الشام، فأذن له، فجمع حطان أمواله وذخائره وغلماه وتوجه نحو الشام، فجهز سيف الاسلام إليه من قبض عليه، وعلى سائر ما معه، ثم قتل حطان، وأخذت جميع أمواله، وكان قيمه المأخوذ على ما قيل من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وأمتعة ألف ألف دينار.

وفيها أو في التي قبلها توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد صاحب الموصل ، وملكها أخوه عز الدين مسعود. وفيها خرجت الفرنج في مراكب من إيالة وسارت إلى عيذاب ثم إلى جدة، وأخذت عدة مراكب من المسلمين، فتعقبهم الحاجب ( لؤلؤ ) في المراكب إلى الحجاز، فأخذهم أجمعين، وكانوا ألفاً وخمسةائة نفر، وعاد بهم إلى القاهرة ، فضرب رقابهم أجمعين.

وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، وكان عنده علم وافر ودين ظاهر، وله مصنفات في علم القرآن وغيره.

### ودخلت سنة ثمان وسبعين

فيها برز الأمر الشريف أن لا يستخدم ذمي في جهات التصرف ، لأن الله نهى أن يكون للكافر على المسلم سبيل، فلا يستخدم أحد من

الكفار في شيء من أعمال الديوان، ويرتب عوضهم من يصلح من المسلمين، وكان كاتب ديوان العرض ذمياً يعرف بابن الأشقر، فشفع ابن البخاري فيه، فكتب مطالعة يصف فيها ثقته وأمانته وكفايته، ويشفع به، فوقع الامام الناصر عليها: هذا ابن الأشقر قد مات، فما الذي يصنع بعده في ديوان العرض، فعرض على ابن الأشقر الاسلام فامتنع، فعزل، وكان لابن الأشقر ولد بالغ، فدخل على ابن البخاري وهو جالس في الديوان، فقال: يامولانا أنا رجل قد رغبت في الاسلام لأجل خدمة أمير المؤمنين، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن كل دين غير دين الاسلام باطل، فكتب ابن البخاري مطالعة بما جرى، فوقع أمير المؤمنين فيها: إنما منعه من استخدام الكفار لكفرهم، فمن أسلم يعاد إلى خدمته، ويخلع عليه ويستخدم في ديوان العرض عوضاً عن أبيه، ويقال لكل من صرفناه من خدمتنا: من أحب الدخول في الاسلام فيعاد إلى خدمته ويشرف ومن لم يفعل لا يمكن من خدمة تتعلق بنا، والسلام.

وفيهما أحضر الامام الناصر الشيخ عبد الجبار صاحب الفتوة، وأعطاه خمسمائة دينار وخلع عليه وعلى ولده شمس الدين، وكان هذا عبد الجبار شيخاً حسناً له أتباع كثيرون، ثم تفتى إليه بعد ذلك خلق من الملوك والأكابر، وكان هذا الفعل مستحاً للناس على التعاضد والتناصر وحفظ العهد، وكتمان السر، وصدق اللهجة، والعفة عن المحارم، وأرباب الفتوة يسندونها بعننة إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وناهيك بذلك شرفاً، وفخراً وعظمة وقدرًا.

## ودخلت سنة تسع وسبعين

فيها مازال الملك الناصر مقياً بالديار المصرية إلى المحرم من هذه السنة، فخرج إلى دمشق، ثم خرج بجيوشه غازياً إلى طبرية وبيسان،

فجرى بين المسلمين وبين الفرنج قتال شديد استشهد فيه جماعة من أبطال المسلمين، وقتل من الفرنج خلق لا يحصون ، ثم خرج الملك الناصر طالباً حلب، فلما فارق حماه وصل إليه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بن كوجك، فأشار عليه بقطع الفرات وأخذ ما وراءه من الموصل ونصيبين والخابور وحران والرها، ثم بعد ذلك يحاصر حلب ويتملكها، فشكره الملك الناصر على رأيه وتوجه إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى حران ففتحها، ثم فتح الرقة بعد حصار، ثم فتح عربان، ثم سار إلى نصيبين ففتحها بعد حصار ، ورتب هذه البلاد وأزال ما بها من المكوس، ثم توجه إلى الموصل، وأناخ بها بجميع عساكره، وصاحبها يومئذ عز الدين مسعود، ونائبه مجاهد الدين قايماز، فكاتب عز الدين مسعود الديوان العزيز باستصلاح أمره مع الملك الناصر ، فجهز الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم رسولاً إلى الملك الناصر وشفيعاً في المواصلة، وصحبته شهاب الدين بشير الخادم، وخاطب شيخ الشيوخ الملك الناصر بالشفاعة ، فصرح الملك الناصر بالامتناع وعدم القبول، وأدام الحصار وتهيئة أسبابه، وأصحاب الملك الناصر يقاتلون ، وشيخ الشيوخ ينهاهم عن القتال، ثم أتى شيخ الشيوخ الملك الناصر وقال: أتيك مستشفعاً، فقال: السمع والطاعة، ثم خرج من الموصل جمال الدين محاسن، ومجد الدين الشريف نقيب الطالبين، وأتيا شيخ الشيوخ، فبعث للملك الناصر يطلب منه ثقة يسمع كلامهما، فبعث إليه القاضي الفاضل والفقيه عيسى بن محمد، فأقاموا يوماً لم يحصل فيه مقصود، ثم أقاموا كذلك قريب شهر يمضون الأوقات، وغرضهم مكاتبة الملوك سرّاً، والاستنجاد بهم، وأجابوا إلى تسليم حلب إلى الملك الناصر بشرط أن يعيد إليهم ما أخذ من بلادهم، فتوقف الملك الناصر في الاجابة، ثم أجاب ، ثم بعد اجابته عادوا ندموا في قولهم إنهم يسلمون إليه حلب، وآخر الأمر أن الملك الناصر قال لشيخ الشيوخ : نحن قد عزمنا على الرحيل، ونهب لهم الموصل شفاعتك فيهم، وهذه

أشهر شريفة ، ثم رحل إلى سنجار ومعه رسل الخلافة ، فنازلها في شعبان، ونصب عليها منجنيقاً، فلما دخل شهر رمضان أمر بالاحجام عنهم، والاحتراز من اراقة الدماء، ثم راسلوه في تسليمها إليه، فتسلمها منهم، وأسقط عنهم المكوس، وتجهز شيخ الشيوخ وأصحابه للمضي إلى بغداد، وأصحابهم الملك الناصر تحفاً وهدايا سنية، وعاد الملك الناصر إلى حران، فنزل بها، وأما المواصلة فانهم تجمعوا، ونجدهم شاه أرمن ملك أخلاط بنفسه وعسكره، وخرجوا من الموصل، ووافوا حرزم، ضيعة من ضييع ماردین، ووافاهم عسكر حلب والياروقية، وصاحب ماردین، وصاحب أرزن، وصاروا في جمع عظيم، فلما علم الملك الناصر بهم كتب إلى أمراءه الغائبين، فوصل إليه الملك المظفر تقي الدين من حماه في خمسة أيام، وسار إلى رأس العين، فلما سمعوا خبره ولوا منهزمين من غير قتال، وذلك في يوم عرفة من السنة المذكورة، ومضى صاحب أخلاط إلى بلاده، وكل ملك مضى إلى ملكه.

وكان الملك الناصر قد كتب إلى الإمام الناصر، طلب منه اذنا في قصد آمد وأخذها، فوصله تقليد بها، فتوجه الملك الناصر إلى آمد فنزلها في سابع عشر ذي الحجة من السنة، وحاصرها حتى دخلت سنة ثمانين ففتحها، وتملكها في المحرم منها، وعاد إلى حلب ونازلها وحاصرها، وجرت حروب كثيرة، وأصيب في هذه السنة على حلب تاج الملوك أخو الملك الناصر بسهم مات منه، ثم اصطلح الملك الناصر وعماد الدين زنكي بن مودود على أن يعوضه عن حلب سنجار ونصيبين والخابور ، وكتب الملك الناصر خطه بذلك، وتسلم حلب في ثاني عشر صفر سنة ثمانين، ومدحه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلب بالسيف في صفر

مبشراً بفتح القدس في رجب

ورقع هذا بطريق الاتفاق وسوق العافية. ولما فتح القدس في رجب من سنة ثلاث وثمانين قيل له في ذلك، فقال: ساقطني القافية، وفوض الملك الناصر إلى محيي الدين ابن زكي الدين قضاء حلب، فحكم فيها، واستتاب بها نائبه زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان بن البانياسي، وأسقط الملك الناصر مكوس حلب وضرائبها، ثم توجه بنفسه إلى حارم ففتحها، وأخذها من مملوك من المماليك النورية كان قد عصا فيها.

وفيهما مات فخر الدولة بن المطلب، وكان أوحد زمانه علماً وورعاً وزهداً ورتاسة، وعمر مدرسة تسمى دار الذهب ببغداد، وجامعاً وخانكاه، ووقف على ذلك وقوفاً سنه. وفيها مات الأمير أبو منصور أخو الامام الناصر، وغسله العدل الحراني وأخذ سلبه، وكان من جملة ما أخذه مسند زركش، وطراحة زركش فيها ألف دينار، وأخذ جميع ما استعمل في غسله من طاسات فضة وطشت فضة، وآلات وأمتعة، قيمة الجميع على ماروي عشرة آلاف دينار.

وفيهما حضر شهاب الدين الطوسي الفقيه الشافعي دار مجد الدين أبي الفضل بن صاحب، واتفق الحديث أن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ما ملك من الدنيا شيئاً، وكان فقيراً، حتى أنه كان يأكل خبز الشعير، فقال الطوسي: هذا ما يقوله ذو معرفة، قد نقل أن علياً أدى زكاة أربعين ألف دينار، وكانت له نعمة ومال كثير، وإنما المبغضون له يقولون هذا، وقصد الطوسي بهذا مهادنة مجد الدين، فإنه كان يبغض الطوسي، ويقصد اهلاكه لأنه كان صاحب ابن العطار، فقال له مجد الدين: فكيف مدح علي عليه السلام على إيثاره خبز الشعير، وتصدقه بخاتمه في الصلاة؟ فقال الطوسي: هذا كان في ابتداء حاله، ثم ملك بعد ذلك، فقال له مجد الدين: أريد أن أقف على هذا النقل ومن الذي نقله، فقال له سمنديار الواعظ: لم يسمع هذا قط، فقال له الطوسي: يجوز أنك ما سمعته، وخرج وقد علم أنه خاطر بدمه، وبلغ أمير المؤمنين

الامام الناصر ذلك فأنكر على مجد الدين كيف لم يكلف الطوسي احضار الحجة، وأظهر الطوسي المرض أياماً، واشتد الأمر في اظهار التشيع حتى روي أن الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قال يوماً: ما اكثر ما يسألوني عن معاوية ويزيد ويكلفوني شرح أحوالهم، أما يكتفون مني في هذه الأيام أن أزاحم لهم بأبي بكر وعمر، وأنا مخاطر، وعلم الطوسي بخطابه، فاستأذن في الحج، فأذن له، فحج ومضى إلى الديار المصرية.

### ودخلت سنة ثلاث وثمانين

فيها برز الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، فترك ولده الملك الأفضل على رأس الماء، فجمع العساكر، وتقدم الملك الناصر إلى الكرك والشوبك، فقطع شجرها وزرعها، وبعث الملك الأفضل عساكره إلى صفورية للغارة، ومقدمهم مظفر الدين بن زين الدين، فخرج الفرنج إليهم، والتقوا وكانت الكرة على الفرنج، وقتل منهم خلق عظيم، وسار الملك الناصر حتى خيم على عشترا، ووصل الملك الأفضل إليه، وجمع الملك الناصر العساكر، ومضى إلى طبرية ففتحها، واحتمت عليه قلعتها وصاحت الفرنج عن يد واحدة، وركبوا قاصدين منع طبرية، وجرى قتال كانت الغلبة فيه للمسلمين، وأما الفرنج فأووا إلى جبل حطين معتصمين به، وأحاطت جيوش المسلمين بهم، فلما أحس القومص بالكسرة انهزم وحده ومن بعده أتباعه، واحتوى المسلمون على بقية الفرنج أسراً وقتلاً.

وجلس الملك لعرض الأسرى، فقدم إليه ملك الداوية والملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري والابرنس أرناط صاحب الكرك، وكان الملك الناصر قد نذر دم صاحب الكرك هذا، فقرعه الملك الناصر على صدره وكذبه، وكان ملك الفرنج قد اشتد عطشه، مع ما عنده من خوف القتل، فأحضر له السلطان ماء بثلج، فشربه الملك

وسقى صاحب الكرك منه، فقال له الملك الناصر: لِمَ تأخذ مني اذنا في سقيه، فلا أومنه، ثم مضى الملك الناصر إلى سرادق ضرب له ، واستدعى بصاحب الكرك، فلما استقبله قام الملك الناصر إليه، وضربه بيده بالسيف فحل عاتقه، وأمر بقطع رأسه ، فقطع ، فارتاع الملك من ذلك، وعرف الملك الناصر ما حل بالملك من الخوف والفرع فاستدعاه وأدناه وقال له: صاحب الكرك غدر ونكث ففعلت به هذا.

وتعرف هذه الكسرة بكسرة حطين، وأخذ منهم السلطان صليب الصليبوت وكان أخذه أعظم عليهم من جميع ما حل بهم، ثم نزل الملك الناصر على طبرية، وبقلعتها صاحبها الست، فسلمها الملك الناصر منها بأمان، وخرجت الست آمنة إلى طرابلس بلد زوجها القومص، ثم رحل الملك الناصر إلى عكا، فخيم قريباً منها في سلخ ربيع الآخر، فخرج أهل البلد إليه يطلبون الأمان، فأمنهم وخيرهم بين المقام آمين والانتقال، وأمهلهم أياماً، ولما دخل جند الاسلام إليها نزلوا أدرها، وجعل الملك الناصر للفقير عيسى كلما يتعلق بالداوية من منازل وضياع بما فيها من غلال ومتاع ، ووهب ولده الأفضل عكا، ودخلها المسلمون في يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فأقاموا الجمعة بها بكنيستها العظمى، وخطب الخطبة جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وتولى القضاء والخطابة بها.

وأقام الملك الناصر نخيماً بباب عكا، ووصل الملك العادل من مصر ، واث الملك الناصر عساكره لفتح الساحل، ففتح مظفر الدين بن زين الناصرة، وعاد بالأسرى والأموال، وفتح بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج قيسارية، فتحوها بالسيف، وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين إلى سبسطية وتسلمها، ووجد فيها مشهد زكريا عليه السلام، قد اتخذ القسوس كنيسة نفيسة مرصعة بآلات المصبوغات فأخذ ما به من ذلك، واتخذ مشهداً، وأقام به منبراً، ثم مضى إلى نابلس فقاتلها حتى

تسلمها بأمان، وفتح في أثناء ذلك قلعة الفولة، ودبورية، وخفسين، وزرعين، واللجون، والطور وبيسان، والقيمون، وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات. وفتح الملك المظفر تقي الدين تبين بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، وبعث صاحب صيدا مفاتيح صيدا، وفتحت بيروت، وجبيل، وعسقلان، والداروم، بأمان بعد قتال شديد، واستشهد من الأمراء ابراهيم بن حسين النهراي، وتسلم المسلمون الرملة، وبيت لحم، والخليل، وحصن الداوية، والنطرون، وبيت جبريل.

ثم رحل الملك الناصر إلى القدس، ونزل عليه، ونصب المجانيق، واشتد عليه الحصار، واجتمع طاغية الكفر وتعاقدوا وتعاهدوا، وجرت حروب كثيرة، فبرز ابن بارزان طالبا الأمان من الملك الناصر، فامتنع الملك الناصر من إجابته، فقال ابن بارزان: إذا لم تؤمننا، فنقاتل قتال الدم، ونحرق الدور، ونخرب القبة ونقطع الصخرة، ونقتل كل من عندنا من المسلمين الأسرى، وهم ألف، ونتلف، ولا فائدة لكم في هذا الشح، فاستشار الملك الناصر أمراءه، واستقر الأمر على أخذ قطيعة قررت على كل رجل: عشرة دنانير، وعلى كل امرأة: خمسة دنانير، وعلى كل صغير ديناران، وبذل ابن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشر من رجب من السنة المذكورة، وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على هذه الوظيفة، وكان بالقدس أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، ووكل بكل باب أمير يحصي الخارجين، ولو حفظ هذا المال لفاز منه بيت المال بأعظم حظ، لكن وقع التفریط، وعم التخليط، فكل من رشامشى، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل محتفيا في الرحال، ومنهم من خرج بزبي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة، وكان بالقدس ملكة رومية مترهبة، لها مال ومتاع وأتباع، فمن الملك الناصر عليها، وعلى كل من معها، وخرجت بذلك، وكذلك زوجة الملك المأسور، ابنة الملك أماري، كانت مقيمة بالقدس مع مالها من الأموال والخدم، فخرجت بمن معها، وكذلك الابرناسية

ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمس مائة أرمني، ذكر أنهم من بلده، واستطلق مظفر الدين ألف أرمني، ذكر أنهم من الرها، وخان النواب فما ضبطوه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وجلس الملك الناصر للهناء على هيئة التواضع، وهيئة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم والدين، وأخذ القراءة في القراءة، والفقهاء في المناظرة، والشعراء في الانشاد، وروى المحدثون، وتحدث الرواة، وكثر ضجيج الخلائق إلى الله سبحانه، وتضرعهم إليه بالشكر له، والثناء عليه بما هو أهله.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، رشح أهل الفضل أنفسهم لتولية الخطبة وغيرها، فلما دنا وقت الزوال، أمر الملك الناصر القاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، ففعل وتمم الخطبتين، وصلى بالمسلمين، ثم جلس للوعظ بعد الصلاة زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فوعظ وأبلغ، وكان يوماً مشهوداً، ومجمعاً موروداً، وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه، ويؤثر عنهم من الأفعال الجميلة، فما منهم إلا من تصدق وعمر وبني وأحسن، فمنهم الملك المظفر تقي الدين، حضر إلى القبة وكنسها بيده، ثم غسلها بالماء مراراً، ثم أحضر أحمالاً من ماء الورد غسلها به، وفعل ذلك بحيطانها وجدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب. وعين الملك الناصر الكنيسة المعروفة بصندحنة مدرسة، ودار البترك رباطاً، ووقف عليها وقوفاً كثيرة، وولى الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد القدس وأعماله، فاستتاب فيه أخاه ظهير الدين علي، وجهاز الملك الناصر القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسولاً إلى بغداد، ومبشراً بالفتح.

وتسلم الملك الناصر ما حول القدس من الحصون، وعاد إلى عكا فنزلها في أول شهر رمضان من السنة، وحرضت الأمراء الملك الناصر على قصد صور، وكان أكثرهم تحريضاً الأمير سيف الدين المشطوب، وكانت معه صيدا وبيروت، وخاف من فوتها، ولم يفكر في قوتها، بانتقال

رجال الساحل إليها، وكان المركيس لعنه الله حال اشتغال المسلمين بالقدس، قد أحكم صور، وحفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، فرحل الملك الناصر بجيوشه قاصداً صور، فوصلها في تاسع شهر رمضان، وخيم عليها، وجرت حروب كبيرة، فلم يتفق فتح، وهجم الشتاء، فاتفقت الآراء على ترك القتال حتى ينقضي الشتاء، ويستريح الجند، وتألم الملك الناصر لفوت ذلك، وعاد إلى عكا، وسكن بها، كل ذلك في سنة ثلاث وثمانين.

وفيها: في آخر ليلة من شوال استشهد محمود بن أخي جاوي على كوكب، وكان دائم التهجد، زاهداً شجاعاً.

وفيها وصل تاج الدين أبو بكر - أخو العماد الكاتب - رسولاً من الامام الناصر إلى الملك الناصر يعاتب الملك الناصر على احداث أشياء نقلت عنه، منها: أنه نعت نفسه بالملك الناصر، ومنها أنه لما فتح الساحل جهز في الابتداء مبشراً به شاباً جندياً مستحقراً، وكان العماد الكاتب وغيره أشاروا أنه لا يمضي مبشراً بالفتح إلا رجل كبير مميز، فقال الملك الناصر: نحن نفذ هذا الشاب الجندي في الابتداء، ثم نرسل بعده رجلاً كبيراً. ومنها أنه لما فتح القدس جهز لبشارته نجاباً، وما يليق إلا انفاذ عالم كبير، وإنما نفذ الامام الناصر تاج الدين أخا العماد الكاتب رجاء أن يطلع من أخيه على الأسرار، فإن الكاتب يطلع على أسرار الملك، فلما وصل تاج الدين أكرمه الملك الناصر، وبالغ، فلما أدى عليه رسالته وقرأها في تذكروته، وكان في ألفاظها غلظة وشدة، قال الملك الناصر: ما أسعدني إذا شرفت بالعتاب، والمملوك ينفعه التأديب، ويزعه التهذيب، على أنني لم أزل في طاعة أمير المؤمنين، ولم أزل في نصرة المسلمين، أما أنا فتحت مصر، ودعوة الداعي قد باضت بها وفرخت، واستأنفت بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت، أما أنا استخلصت اليمن والساحل، وفتحت البيت المقدس، وأما النعت الذي

أنكر عليّ فهو من عهد الامام المستضيء وقد اشتهر في الآفاق، والآن فكلما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمي الذي أتشرف به ، وإني أفترض طاعة أمير المؤمنين للدين لا للدنيا، وذكر كلاماً طويلاً هذا خلاصته، ثم أعاد تاج الدين بجواب رسالته، ومضى.

وفيها توفي شمس الدين بن المقدم بعرفة، وسببه أن طاش تكين أمير الحج أنكر عليه ضرب الطبل ، فامتنع ، فأمر طاش تكين أصحابه أن واقعوا شمس الدين وأصحابه فتواقعوا وذهب شمس الدين غلظاً، ولما عاد طاش تكين إلى بغداد غضب الامام الناصر عليه بسبب ذلك، وعزله عن إمارة الحاج، ثم اعتقله بعد مدة.

### ودخلت سنة أربع وثمانين

والملك الناصر مقيم بعكا، فسار إلى كوكب رأى حصانته، ووكل بها قايماز النجمي، وجهاز إلى صفد طغريل الجاندار، وكان سعد الدين الأسدي موكلاً بقلعة الكرك، وقد ذكرنا أن الملك الناصر ضرب عنق صاحب الكرك بيده، وكانت زوجته ابنة فليب مقيمة بالقدس، وحصل ولدها هنفري في الأسر، فلما فتح الله سبحانه القدس، خرجت صاحبة الكرك ابنة فليب طالبة الملك الناصر باكية على ولدها، حاسرة والهة راغبة في فك ولدها، وخرجت معها زوجة ابنها باكية نادبة زوجها هنفري، فأكرمهما السلطان، وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الكرك والشوبك إلى المسلمين، واستحضر السلطان ابنها هنفري من دمشق، وسار معهم جماعة من الأمراء لتسليم المعاقل، ومضت الملكة مع ولدها حسنة الظن بمن بالمعاقل، من أهل دينها، فلما وصلت إليهم منعوها وقاطعوها وشتموها، فذكرتهم وخوفتهم، فلم يصغوا إلى مقالاتها، فعادت إلى السلطان خائبة ، فقبل عذرها، وأعلمها

أن ولدها محفوظ ملحوظ إلى أن يتسلم منها الحصون، ويسلمه إليها، فمضت إلى صور وسكنت بها.

ثم أخذ السلطان يستشير في أمر عكا وتهديمها أو عمارتها، واختلفت الآراء فترجع عنده عمارتها، فقال: ما أرى لها إلا بهاء الدين قراقوش، فبعث كتاباً أحضره، وسلمها إليه لعمارها، وعاد السلطان إلى دمشق، ودخلها في سادس ربيع الأول، وكان الصفي بن القابض، قد ابتنى للسلطان داراً على بعض أبراج قلعة دمشق، وأذهب في نضارتها وزخرفتها مالاً عظيماً، ظنا منه أن هذا يعجب السلطان، فلما دخل السلطان إلى دمشق اجتهد الصفي في دخول السلطان إليها، وتوسل وتوصل، فما التفت السلطان ولا دخلها وقال: السعيد من يني دار الآخرة، ثم عزل الصفي عن ديوانه بسببها، وأبقاه على الخزانة.

قال العماد الكاتب: سمعت السلطان يقول: كان خير ذنوب الصفي عندي بناؤه تلك الدار، وما يعمل بالدار من يتوقع المنية، وما خلقنا إلا للعبادة، والسعي في السعادة، وما يخطر لنا خلود في هذه الدار، ثم وردت الأخبار بوصول عسكر الشرق إلى حلب، فتوجه السلطان إلى بعلبك، ووصل عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي إلى بحيرة قدس، وخيم عليها، فخرج السلطان إلى قدس، وتلقاه عماد الدين، ثم دخلا إلى الساحل، ونهب المسلمون من الأغنام شيئاً كثيراً، وقطعوا أشجارهم وخربوا ديارهم، وفتحوا حصن يحمور، وساروا إلى أنطربوس في سادس جمادى الأولى، وزحفوا إليها وهدموها ونهبوا ما فيها من الأنفس والأموال، وامتنع منها برجان في أحدهما الداوية، وفي الآخر جملة من المنهزمين، فسلم مظفر الدين برج المنهزمين وتسلمه منهم وهدمه ورمى بحجارته إلى البحر، وامتنع برج الداوية فتركه خوفاً من فوات غيره، ثم سار نحو جبلة وتسلموها بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، ثم مضوا إلى صهيون، ونصب المجانيق عليها، واشتد عليهم الحصار حتى صاحوا الأمان، فأخذها السلطان منهم بما فيها من العدد والأموال، وقطع

عليهم مثل قطعة القدس، ثم سلم السلطان صهيون بجميع ما فيها إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، ثم تسلم السلطان قلعة العيد، ويوم السبت قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلا طنس، ثم مضى إلى الشجر بكاس فتسلمها بالأمان، وكان من نواذر أطفاف الله تعالى تيسر هذه الفتوحات الخمسة المتتالية في أيام الجمع الخمس المتتالية، ثم سار السلطان إلى برزية وفتحها بعد حروب كثيرة في جمادى الآخرة أيضاً، ثم توجه إلى الدربسك وتسلمها في ثاني عشر رجب، ثم تسلم من الداوية حصن بغراس وعجب من ذلك، وسلم الحصنين إلى سليمان بن جندر، وكان له حصن عزاز، ثم عزم على قصد أنطاكية، فوصله رسول صاحبها يسأله الهدنة على أنطاكية وما في يده ثمانية أشهر، فأجابه على ذلك، وتوجه السلطان إلى حلب فدخلها، ثم توجه إلى معرة النعمان قاصداً زيارة الشيخ أبي زكريا الزاهد رحمه الله، فزاره وتبرك به، ثم مضى إلى حماه، وتوجه إلى دمشق فدخلها في آخر شعبان من السنة، وظن الناس أنهم يقيمون بدمشق للصوم عند أهاليهم، فما لبث السلطان ولا مكث، وخرج في أوائل شهر رمضان، وقصد صنفد وقاتلها مدة شهر إلى ثامن شوال فتسلمها بالأمان بعد قتال شديد، فلما كان منتصف ذي القعدة فتح السلطان كوكب بعد حروب عظيمة، وتوجه السلطان إلى القدس في مستهل ذي الحجة وعيد به عيد الأضحى، وودعه الملك العادل ومضى بعسكره إلى مصر، وخرج السلطان إلى عكا.

## ودخلت سنة خمس وثمانين

والسلطان مقيم على عكا يرتب أمورها ويصلحها، فلما كان العشرون من شعبان زحف الفرنج عن يد واحدة، واقتتل المسلمون وهم قتالاً عظيماً استشهد فيه الأمير مجلي بن مروان، وظهير الدين علي أخو الفقيه عيسى، وطلبوا مخيم السلطان فانهمز المسلمون، ووصل بعضهم إلى

طبرية، وبعضهم إلى عقبة فيق، ومنهم من وصل إلى دمشق، وخيف على السلطان، واشتغل كل بنفسه، ثم ورد الخبر أن السلطان صادم جمعاً من الفرنج فقاتلهم وانتصر عليهم، فترجع الناس إليه، ووقعوا على مسيرة العدو ووضعوا فيهم السيف، ولم ينفلت منهم إلا الأحاد

قال العماد الكاتب: حكى أن الفرنج اعرضوا في مائة ألف وعشره آلاف، ومن العجب أن الذين ثبتوا من المسلمين لم يكونوا ألفاً، فردوا مائة ألف، وحكى بعض المنهزمين قال: انهزمت من فارس كافر وفرسه يجري جري الرياح، ولزني حتى آيست من البقاء، ثم أبطأ عليّ فعله بي فالتفت وإذا به وبحصانه ملقيان وليس هناك أحد، فعرفت أنه نصر إلهي. واستشهد في هذه الواقعة الفقيه جمال الدين أبو علي ابن رواحة، ثم وقع الاتفاق على تأخير القتال، وتأخر السلطان إلى اسروبة، وشرع العدو في حفر خندق على معسكرهم من البحر إلى البحر، فحفروه وعمقوه.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عسرون، موته في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بدمشق، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فكان عمره أربعاً وتسعين سنة، كان عالماً بمذهب الشافعي، عظيماً فيه، أخذ العلم عن القاضي أبي علي الفارقي وقرأ الفارقي على الشيخين أبي اسحق الشيرازي، وأبي نصر بن الضباغ، وقرأ أصول ابن برهان على ابن برهان، وقرأ تعليق أسعد على أسعد، وأنجب من أصحابه خلق عظيم، وهو كان السبب لعمازة المدارس واشتجار العلم بالشام.

وفيها وصل أمر أمير المؤمنين الامام الناصر إلى السلطان الملك الناصر بالخطبة لولده ولي العهد عدة الدين أبي نصر محمد، فخطب له بدمشق في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، ونثرت الدنانير على الخطيب، وأمر بذكر اسمه في السكة والخطبة ففعل.

وفيهما في تاسع ذي القعدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد ،  
وحمل مرز، يومه إلى القدس فدفن به، ونهيا توفي عز الدين بن الما، في  
بكرة الجمعة منتصف شعبان.

## ودخلت سنة ست وثمانين

والسلطان مقيم على الخروبة، والملك العادل والأفضل معه، والفرنج  
محاصرون عكا، ودام الحصار جميع السنة.

وفيهما كانت وقعة الرمل: كان السلطان يركب أحيانا للصيد فركب  
يوما لذلك، فطاب له وأبعد، فخرج الفرنج طالين بعد العصر، وحملوا  
حملة واحدة على المسلمين، وفني نشاب المسلمين، واستشهد منهم جماعة.

وفيهما في نصف ربيع الأول تسلم السلطان شقيف أرنون، وفيها صح  
الخبر أن ملك الألمان عبر من خليج القسطنطينية ، وكان معه خلق  
لايحصون ، فقيل إنهم أقاموا في موضع شهراً عدموا فيه الطعام فهلك  
منهم خلق، وتوصل الباقون إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود، فقَاتلهم  
فَهزموه ودخلوا قونية ثم راسلهم وصالحهم على العبور إلى بلاد الشام،  
فاصطلحا على ذلك، وبعث مليح بن لاون معه عشرين أميراً ليوصلوه  
إلى مأمن، فلما وصل ملك الألمان إلى المأمن، غدر بالأمرء، وساقهم معه  
مقيدين إلى طرسوس، فمكث بها مدة، ثم قيل إنه عنّ الملك الألمان أن  
يسبح، وكان شيخاً مسناً، فسبح في الماء البارد، فخرج منه مريضاً،  
ومات إلى لعنة الله تعالى، وقيل إنه غرق ، وقيل إنه لما مات سلقه  
أصحابه في قدر حتى تخلصت عظامه، ثم جمعوها في كيس وراموا  
انفاذاها إلى القدس ليدفنها في قمامة اكراما له على ما وصاهم به، وقام  
ولده مقامه، ووصل إلى السلطان كتاب اللكوتاغيكوس صاحب قلعة  
الروم يبدي نصيحة، وأرعد فيه وأبرق بقضية ملك الألمان، وحكى له ما

جرى له معه، فذكر أنه بذل لملك الألمان مائة قنطار ذهب وفضة نضفين، ومن الثياب الطلس المعدنية ما يبلغ آلاف، وكثر في ذلك وشدد وأنه تولى بعد استحمامه بماء بارد، وقد خلف ولده، وقد عرض في اثنين وأربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلكثر بهم تعذر العرض.

فلما بلغت هذه الأخبار اضطربت الديار، ثم قدر الله سبحانه مرض ولد ملك الألمان، ومات أصحابه جوعاً، وتواصل من سلم منهم إلى أنطاكية، وتفرقت بقية منهم التقطهم المسلمون والتركمان، وباعوهم بحلب في الأسواق، حتى أن فلاحى القرى طمعوا بهم واستأسروهم، فتوجه ملك الألمان بنفر يسير إلى عكا، فاختلف مع الفرنج عليها.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان توفي زين الدين يوسف ابن ايتكين صاحب إربل، وسر أخوه مظفر الدين بوفاته. وقال العماد: قصدناه معزين وإذا به في رواقه واحتاط على جميع ما يحويه، وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها، ونزل عن حران والرها وسميساط، وزاده السلطان شهر زور.

وفيها وقعة رأس الماء، في رابع عشر شوال، وسببها أن الأسعار غلت عند الفرنج حتى هلكوا جوعاً، وبلغت الغرارة مائة دينار، فخرجوا بحدهم وحديدهم وعددهم وعديدهم، وعبأ السلطان عسكره، والتقى الجمعان، وقام ايباس الطويل في هذا اليوم مقاماً عظيماً، ووقف بين الصفين يدعو إلى المبارزة، فما برز إليه أحد إلا صرعه.

ثم هجم الشتاء وأذن السلطان للأجناد الغريباء والملوك بالإنصراف، فعادوا إلى منازلهم، وأقام بخاصته على قدم الغزاة.

وفيها في ثاني عشر ذي الحجة هلك ولد ملك الألمان، ولحق بأبيه لعنهما الله تعالى.

## ودخلت سنة سبع وثمانين

فيها وقعت وقائع على عكا آخرها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، فهجم الفرنج عكا واستولوا عليها، وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين سر باريك وأخذوا أمانا من الفرنج على أن يخرجوا بأنفسهما وأموالهما على تسليم البلد ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة أسير من المعروفين، وصليب الصليبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس، وأربعة آلاف لحجاجة، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره إلى الملك المظفر تقي الدين، حيث سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بقصد أخلاط وغيرها.

وغدر الفرنج بالمسلمين بعد الأمان، وأسروا بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب، ثم لما استقروا بعكا خرجوا إلى قيسارية، ووقعت وقعتها في تاسع شعبان، واستشهد اياس الطويل. ثم في رابع شعبان كانت وقعة أرسوف، وثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين، ونزل الفرنج على يافا، وتوجه السلطان إلى عسقلان فهدمها في تاسع عشر شعبان، ثم توجه إلى الرملة فنزلها بعد هدم عسقلان.

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، وهو محاصر ملازكرد، وقد ذكرنا أن مولده في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وشهوراً.

وفيها توفي حسام الدين محمود بن عمر بن لاجين - - وهو ابن أخت السلطان الملك الناصر - بدمشق، في يوم الجمعة تاسع عشر رمضان في يوم وفاة الملك المظفر. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر. وفيها

توفي الصفي بن القابض في ثالث عشرين رجب. وفيها توفي نجم الدين الخبوشاني، وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الشافعي رحمه الله، ووقف السلطان عليها رباعاً، فلما توفي الخبوشاني طلب المدرسة جماعة، وشفع الملك العادل في صدر الدين شيخ الشيوخ ابن حموية، فسلمها إليه، ثم عزل بعد ذلك بمدة قليلة.

وفيها مات قزل صاحب خراسان، وملك ابن أخيه أبو بكر.

وفيها تسلم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب مهسنا، وكيسون ورعبان والمرزبان. وفيها قتل الملك الظاهر شهاب الدين السهروردي وتلميذه لفساد دينه واعتقاده.

وفيها توفي القاضي محيي الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بالموصل، وفيها توفي الفقيه علاء الدين الكاشاني بحلب، مدرس مدرسة الحلاويين، وكان رئيس أصحاب أبي حنيفة بها.

### ودخلت سنة ثمان وثمانين

وصل السلطان إلى القدس، وشرع في تحصينه وعمارتها، ثم وصله الأمير سيف الدين المشطوب من الأسر، وكان لما أسر قرر على نفسه قطعة خمسين ألف دينار، أدى منها ثلاثين ألفاً، ودفع رهائن بعشرين ألفاً، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها لمصالح القدس، وترك عماد الدين أحمد بن المشطوب بنابلس، وأبقي عليه فيها.

وفيها: هلك المريكيس لعنه الله بصورة، قتله كافران بالسكاكين في ثالث عشر ربيع الآخر. وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش، قاضي العساكر.

وفيها أخذ الفرنج الداروم عنوة، وقتلوا كل من به من المسلمين، قيل كانوا خمسمائة نفس وفيها مضى السلطان إلى يافا ونقبوها وهجموها، وذلك في شهر رجب، وفيها قريب من ألف نفس من الفرنج، وطلبوا الأمان فبطل السلطان عنهم القتال طمعا في أخذهم، فجاءهم صبيحة يوم السبت نجدة من عكا، ستون مركبا موسقة بالرجال، وقاتلوا المسلمين، وقتلوا منهم جماعة، وعند ذلك ظفر السلطان بهم، فطلبوا الصلح، وطلب السلطان منهم عسقلان وغيرها فردوه فأجابوا فتسلم منهم مدينة عسقلان وهدمها، بعد أن غرم الفرنج على عمارتها مائة ألف دينار.

## ودخلت سنة تسع وثمانين

كان السلطان دخل دمشق، فلما دخل صفر مرض ثم توفي في السابع والعشرين من صفر، رضي الله عنه، وقد ذكرنا أن مولده في سنة اثنتين وثلاثين، فكان عمره ستا وخمسين سنة وأشهرًا، وخلف من الولد سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة، وكان الملك العادل يموئذ بالكرك فحضر بعد أيام إلى دمشق، ثم توجه إلى بلاد الجزيرة، فإن السلطان كان قد جعل له كل ما شرقي الفرات من البلاد، ولم يخلف السلطان في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، هكذا ذكره العماد الكاتب.

قال العماد الكاتب: حسب ما وهبه السلطان من الخيل لمن حضر معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين اثني عشر ألف رأس من الخيل، من حصان واكديش وحجرة، غير ما أطلقه من المال لشراء الخيل، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود بهبته، وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا جاهد عليه، فإذا نزل أعاده إلى صاحبه، وكان لا يلبس إلا ما يجل لبسه من قطن وكتان وصوف، وكانت محاضره مصونة، وخلواته

مقدسة، عالما بعلوم الشرائع، وكان المجالس له لا يعلم أنه جليس السلطان بل جليس لأخ من الأخوان.

قال العماد: ومما أذكر له أنه توجه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين فحوسب صاحب ديوانه، فكانت سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبها ولا ذكرها مع أن صاحب الديوان معترف بها، ووصله كتاب سيف الدولة ابن منقذ من مصر يخبره أن شخصا ضمن معاملة بمبلغ فاستقص منها ألفي دينار وهرب، وربما وصل إلى الباب الشريف وتمحل وتحيل وكذب، فأخبر السلطان أنه بالباب، فقال السلطان: قولوا له: ان ابن منقذ يطلبك فاجتهد ان لاتقع في عينه، فتعجب الحاضرون من كرمه وحلمه.

قال العماد: وقال لي بحرّان في سنة إحدى وثمانين: اكتب إلى الصفي ابن القابض يتصدق بدمشق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت الذهب الذي عنده مصري، فقال: يتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية، قال العماد: وأشفق من صرف المصري بالصوري لما فيه من الربا، قال العماد: فسمعت بعد ذلك من الصفي يقول: أحصيت فقهاء المدارس بدمشق، فكانوا ستمائة فقيه، فأطلقت لكل فقيه شيئا من ذلك، قال العماد: وقال لي يوم الرحيل من حران: انظر كم بقي من الوافدين بالباب من أبناء السبيل، وهذه ثلاثمائة دينار فرقها عليهم، وفضل من شئت على أقدارهم، فعينت لكل واحد منهم قسما، فبلغت القسمة أربعمئة دينار، فجعلت أفكر وأطيل النظر إليه، فقال: مالك؟ قلت: قد جرى القلم بقسمة أربعمئة دينار فهل أنقص من كل قسم ربعا؟ فقال: لا، أجري ماجرى به القلم، وأحسن صنعا، وكانت مماليكه وخواصه وأجناده أعف من الزهاد.

قال العماد: ورأى يوما دواتي محلاة بالفضة، فأنكرها، فقلت: أوليس

تحل حلية السلاح، فدواتي أنفع، ويراعي أطول، وسلاح قلبي أجد وأجد، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي، فقال: ما هذا دليل، فقلت: إن الشيخ أبا محمد الجويني والد إمام الحرمين أبي المعالي قد ذكر وجها في جواز تحلية الدواة، وأنا أتبعه، ثم بعد ذلك ماعدت كتبت منها، إلا من دواة شبه خوفا منه.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوقاتها، وعلى أداء سننها، ولا يصغي إلى قول منجم ولا منطقي، ولا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان، هذا خلاصة ما ذكره العماد الكاتب، وبالجملة كان السلطان رحمه الله أعظم من أن يوصف بالصفات الجميلة والآراء الحميدة، وكل ما ذكره العماد الكاتب عنه مقبولا ولا يمكن دفعه، وأول من جمعه.

ولما مات السلطان قدس الله روحه قام بالملك بعده ولده الملك الأفضل نور الدين علي، واستقل بدمشق، وكان السلطان عهد إليه في حياته واستحلف الجنود له.

وفيها توفي عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وقام بالأمر بعده ولده نور الدين، وفيها تسلم الملك العادل قلعة جعبر وسروج والرقعة، وصالح صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وأخذ العساكر، ودخل إلى بلاد أخلاط فكسره صاحبها وقتل من أصحاب الملك العادل جماعة وأسرى جماعة، وهجم الثلج، فعاد الملك العادل إلى حران.

وفيها فارقت الياوقية الملك الظاهر من حلب، وانتقلت إلى خدمة الملك العادل.

وفيها قتل سلطان همذان طغرل شاه بن أرسلان شاه، وحمل رأسه إلى بغداد على قناة، وعلق على الباب النوبي، وفيها أخذ الإمام الناصر

البوازيح من صاحب إربل وسلمها إلى صاحب الموصل، وفيها ذكر أن خليجنا من نيل مصر أصبح دما عيطا وفيها ورد الخبر بأن ذئبا كلبا هجم دنيسر، وعض اثنين وتسعين نفرا فماتوا جميعا، وفيها وقع بأرض بالس برد كبار، وزن البردة على ما قيل مائة وعشرون درهما، هلك به الوحش والطيور والنعم والماشية والخلق والضياع والأشجار، وأخرج من الماء برد بعد خمسة عشر يوما من وقوعه في الماء مثل بيضة الحمام، وجاء عقيب ذلك رعود طارت العقول منها، وفقعت فقعة كان منها صاعقة نزلت في اصطلب بالياروقية أحرقت سبعة أنفس كانوا متبهين، وإلى جانبهم ثلاثة أنفس نيام لم تصبهم وسلموا.

### ودخلت سنة تسعين

فيها نزل الملك العزيز عثمان صاحب مصر إلى دمشق يحاصرها، وأقام عشرة أشهر وقطع الماء عنها، فبعث الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل وأخيه الملك الظاهر يستنجدهما فوصلا إليه ورحلا العزيز عنها، واصطلحوا جميعا، وعاد العزيز إلى مصر، وأخذ الملك الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية.

### ودخلت سنة احدى وتسعين

ففيها توفي القاضي مجد الدين أبو القاسم هندي بن يوسف بن هندي، الحاكم بمدينة حمص، وصلى عليه الخطيب ضياء الدين الدولعي بجامع دمشق، ثم صلى عليه القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري خارج باب الصغير، ثم صلى عليه الحافظ ضياء الدين ابن عساكر بالمصلى، ثم صلى عليه القاضي محيي الدين قاضي دمشق، ابن القاضي زكي الدين بمسجد النارنج ودفن به، وكانت الجنازة عظيمة وافرة جدا، وكان رحمه الله عالما فاضلا عظيما مهيبا، وقام بالقضاء بعده القاضي زين الدين أبو

الفضل محمد، وكان في زمن والده ينوب عنه في القضاء بحمص وأعمالها في غيبته وحضوره، ثم استقل بالقضاء بحمص وأعمالها بعد وفاة والده.

### ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها نزل الملك العادل أبو بكر بن أيوب على ماردين، وحاصرها، وأخذ الربيض في ذي الحجة من السنة.

### ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها توفي الملك العزيز عثمان صاحب مصر وقص به فرسه فمات، واتفقت الصلاحية على تولية الملك العادل بمصر، فحضر إليهم سيف الدين يازكش، وأشار بإحضار الملك الأفضل وتوليته، وكان يومئذ يصلخد، واتفقوا على ذلك وأحضره وولوه السلطنة بمصر، واستقر حاله بها، ثم بعد ذلك خرج فخر الدين جهاركس والصلاحية مغاضبين إلى القدس، وأخذوه، وبعث الملك الظاهر صاحب حلب، والملك المجاهد اسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الملك الأفضل، وأشاروا عليه بقصد دمشق وأخذها وأنها ينجدانه، فخرج الأفضل قاصدا دمشق، ولما بلغ الخبر الملك العادل سيف الدين أبا بكر، وهو يومئذ بهاردين ساق مستحشا طالبا دمشق، فدخلها في أيام قلائل قبل وصول الملك الأفضل إلى دمشق، وسببه أن الأفضل اعتاق في الطريق لالضرورة، ولو كان استحث نفسه سبق إلى دمشق، ولما وصل الأفضل إلى دمشق جاءه الملك الظاهر وصاحب حمص، وأناخا على دمشق محاصرين عمهما الملك العادل، فحاصراه والملك الأفضل مدة، ثم هجم الشتاء فرحلا عن دمشق، وكان الملك العادل في خلال الحصار استدعى ولده الملك الكامل، وهو على ماردين بالعساكر، فجاء العادل بعساكره إلى دمشق ودخلها، ولما رحل الملك الظاهر والملك الأفضل عن دمشق توجه

الظاهر إلى حلب، والأفضل إلى مصر، وعاد الملك الكامل إلى جهة الشرق، ثم توجه الملك العادل إلى مصر تابعا للأفضل فوصلها، وكانت عساكر مصر قد باطنت وخامرت ونكثت أيانها، فملك العادل مصر، وخرج الملك الأفضل إلى صلخد.

وفيها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن البيساني في الليلة التي دخل الملك العادل فيها إلى مصر بعة السكته.

### ودخلت سنة ست وتسعين

لم يزد فيها نيل مصر، واشتد عليهم الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا وأكل بعضهم بعضا.

وفيها وليّ القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء القضاء ببغداد، وفيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل محمد بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حمص إلى مدينة حماة مفارقا حمص وقضاها، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماة بالإكرام والإعظام واستقبضاه وبعثه رسولا في سنته إلى الديار المصرية إلى الملك العادل سيف الدين.

### ودخلت سنة سبع وتسعين

كان الملك العادل أقطع ابن أخيه الملك الظافر خضر السواد من الشام، فبلغ الملك العادل أنه يكاتب أخوته باطنا، فأقطع الصلاحية السواد وأمر عليهم عز الدين سامة، وأمرهم بقصد صلخد ومحاصرة الأفضل ففعلوا، ثم أقطع الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أخيه الملك الأفضل ميفارقين وجبل جور، ونفذ في الباطن إلى ولده الملك

الأوحد المقيم يومئذ بميفارقين يأمره أن لا يسلمها إليه، فخرج الملك الأفضل في جمادى الآخرة من السنة، ومضى إلى حلب واستنجد بأخيه الملك الظاهر، فأكرمه، وجند الملك الظاهر الجنود وخرج بنفسه وعساكره وأخرج معه خزانة السلاح محمولة على مائتي جمل، وقصد منبج، فأخذها، وصاحبها يومئذ شمس الدين عبد الملك بن المقدم، وقبض عليه وبعثه إلى حلب، فاعتقله بها، ثم توجه إلى قلعة نجم فأخذها وسلمها إلى نواب أخيه الأفضل، وعاد إلى جهة حماة ومعه من العرب أمم عظيمة، فنهبوا القرى وأجلوا أهلها وسفكوا دماهم، وأكثروا الفساد في الأرض، وأخافوا السبيل، ثم مضوا إلى حماة فحاصروها في شعبان وشهر رمضان من سنة سبع وتسعين، ثم اصطلى الملك الظاهر والملك المنصور، وتوجه الملك الظاهر والملك الأفضل إلى حمص وصاحبها يومئذ اسد الدين شيركوه) ابن احمى الملك الأفضل، والكل متفقون باطنا، ثم مضيا إلى بعلبك، فأعطاهما صاحبها مالا، ثم توجهتا إلى دمشق في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين، فنزلا في ميدان الحصا والمقابر، وزحفا مرة، ثم زحفا مرة ثانية فملكا العقبية وهدماها، وملكا خان الملك المظفر تقي الدين، وخرج إلى الملك الظاهر الخطيب الدولعي والأمير عز الدين سامة ولطفا به ووعداه أنه اذا توجه إلى عمه الملك العادل وبلغ مقصوده منه وعاد سلموا إليه دمشق صلحا.

وفي أثناء ذلك وقع فيما بين الملك الظاهر والملك الأفضل، وفسد الحال ورحلا عن دمشق في أول صفر سنة ثمان وتسعين، ولما عاد الملك الظاهر إلى حلب صالح الملك الأفضل عمه الملك العادل على سروج وسميساط والموزر، فدفعها الملك العادل إليه، وخاف الملك (المنصور) صاحب حماة من الملك الظاهر على المعرة، فراسل الملك العادل في استدعائه للمقام بظاهر حماة، ونزل ظاهرها، ثم اتفق الصلح بين الملك العادل وبين الملك الظاهر.

وفيهما توفي حسام الدين صاحب ماردين، قيل إن غلامه قد سقاه سمًا، فمات منه، وفيها عزل القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري عن قضاء بغداد، وفسح له في العودة إلى وطنه.

وفيهما توفي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي إمام وقته في علم الوعظ والحديث والجرح والتعديل والتفسير والتاريخ والسير، والفقه على مذهب أحمد بن حنبل، صنف في كل علم وطبق الأرض ذكره، واشتهرت تصانيفه وكان من العلم والفضل بمحل عال وأما الوعظ ومواده فهو مسلم إليه.

وفيهما زلزلت الدنيا زلزلة عظيمة بالشام والسواحل هدمت صور وعرة وأبراجا من عكا وهلك فيها خلق عظيم ووقع رأس منارة دمشق والكلاسة وأبراج من قلعة حماة وبارين وشعثت شيزر وبعلك.

وفيهما تزوج السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة الست وحشية خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ووصلت إلى حماة وكان يوما مشهوداً، وتوفيت السنجارية زوجة الملك المنصور قبل ذلك بثلاثة أيام فكان موتها راحة لها.

### دخلت سنة تسع وتسعين

ففيها في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ولد الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك منصور والدته وحشية خاتون بنت الملك العادل سيف الدين.

وفيهما ولي القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء حماة في صفر وتوفي في العشر الاوسط من رجب من السنة فكانت مدة ولايته خمسة

أشهر فيها شهر واحد صحيح الجسم ، والباقي مريض ، وفيها توفي القاضي محيي الدين أبو المعالي بن القاضي زكي الدين قاضي دمشق المحروسة .

### ودخلت سنة ستمائة

فيها توفي الحافظ بهاء الدين بن عساكر بدمشق .

### ودخلت سنة خمس وستمائة

فيها جاءت زلزلة عظيمة هائلة في الثلث الأخير من الليل هدمت شراريف من برج القلعة بحماة المحروسة وهدمت أبراجا بقلعة بارين وهدمت غالب قلاع الساحل وحكي ان البحر غار قطر منه وعمت معظم البلاد في الأقطار .

### ودخلت سنة ست وستماية

فيها توجه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الى سنجار فنزل عليها وصحبته الملك المنصور صاحب حماة وغيرها وذلك مدة أشهر .

وفيها توفي الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بابن خطيب الري صاحب الكتب المصنفة في الحكمة والمنطق والأصولين وغير ذلك ، طبق ذكره الأرض واشتهر فضله وسارت مصنفاته وعلت منزلته عند خوارزم شاه حتى كان يقرأ عليه ويقعد بين يديه ، وتوجه الى عند شهاب الدين الغوري وحظي عنده بالخطوة العليا وله أخبار منقولة وسير مشهورة ومولده في حدود سنة خمسين وخمس مائة ،

وأخذ العلم عن والده الخطيب بالري وعن مجد الدين الجيلي وأخذ  
الحكمة وعلم الكلام عن الحمصي — بميم مشددة •

### ودخلت سنة سبع

فيها وردت رسل الباطنية الى بغداد من ألموت وبقية بلادهم،  
وخبروا عنهم أنهم اسلموا وأظهروا شعائر الإسلام وبعثوا بمفاتيح  
بلادهم وقلاعهم الى دار الخلافة وبعثوا ذهباً مضروباً عليه اسم الإمام  
الناصر لدين الله تعالى وزفت في جوانب بغداد •

وفيها توفي نور الدين زنكي صاحب الموصل وتقلد السلطنة بالموصل  
بعده الملك القاهر •

### ودخلت سنة ثمان وستائة

فيها توفي شيخنا الإمام عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس إمام  
أصحاب الشافعي في وقته، مولده في حدود سنة اثنتين وخمس مائة وكان  
رحمه الله جامعاً بين العلم والعمل انتهت اليه رئاسة الدين والدنيا  
وصنف في أصول الفقه وفروعه، وكان إذا مرض يعود نور الدين أتابك  
صاحب الموصل في منزله، وكان نور الدين حنفي المذهب، فعاد الشيخ  
عماد الدين مرة في مرضه وسأله حاجة فقال: ارى أن تعود الى مذهب  
الشافعي فعاد من وقته وبنى لأصحاب الشافعي مدرسة لم ير الراؤون  
أحسن منها، ودفعها للشيخ عماد الدين رحمه الله، وكان الشيخ هو  
المعتمد للترسل الى دار الخلافة، ولما توفي نور الدين انحدر الشيخ الى  
بغداد رسولا وأخذ التقليد الشريف بالسلطنة بتملك القاهر بن نور  
الدين أتابك، وبعد هذه السنة خال الى:

### سنة اثنتي عشرة

فيها حج الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ومهد طريق تبوك وفتحها فانقطع الحاج عن طريق تيماء وسلخوا طريق تبوك.

### ودخلت سنة ثلاث عشرة

فيها مات الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب في العشرين من جمادى الآخر وكان رزنا عظيما في الإسلام.

### ودخلت سنة اربع عشرة

فيها خرج التتر الكافر الى بلاد خراسان وماوراء النهر، وأسروا خوارزم شاه، واستولوا على بلاد المسلمين، وتسلموا خوارزم وهدموها، وقتلوا كل من بها، وفعلوا ذلك ببخارى، وتلك الأقاليم حتى روى جماعة من التجار والفقهاء الواردين من تلك الجهات أنهم هدموا مائتي مدينة ونييف، وقتلوا من الفقهاء آفا كثيرة، فكيف بالعوام، وانقطعت السبل في تلك النواحي سنين عديدة.

### ودخلت سنة خمس عشرة

فيها توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بعالقين على فراسخ من دمشق وقد ذكرنا ان مولده في سنة سبع وثلاثين، فكان عمره سبعا وسبعين سنة وشهورا.

## ودخلت سنة ست عشرة

في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شعبان تسلم الفرنج دمياط بعد محاصرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، فإنهم نزلوا عليها في ثالث ربيع الأول سسنة خمس عشرة، وأقام السلطان الملك الكامل في مقابلتهم بمن معه من الملوك والعساكر الاسلامية مدة طويلة بالمنزلة المشهورة بالمنصورة وجرى بين الفريقين من القتال برا وبحرا ما لا يمكن وصفه واشتد الغلاء بدمياط في حالة حصار الفرنج لها حتى لم يبق يوجد شيء وإن وجد كان أضعاف أضعاف ثمنه ونفدت نفقاتهم ووقع فيهم الفناء فماتوا، ولما تسلم الفرنج دمياط في التاريخ المذكور مازالت بأيديهم والمسلمون يحاصروهم، ويوم الأربعاء سابع عشر شعبان سنة ثمان عشرة وستمائة فتحها المسلمون وتسلموها من الفرنج كل ذلك بحول الله وقوته وبعزم السلطان الملك الكامل وحسن نيته وجميل طوبته، وكان ذلك يوماً مشهوداً عظيم البركة على المسلمين، وكانت مدة مقام دمياط في يد الفرنج سنة كاملة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً.

## ودخلت سنة سبع عشرة

فيها في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي القعدة توفي الملك المنصور صاحب حماة رحمه الله تعالى، ومولده كما ذكرناه في سنة سبع وستين، وابتدأ ملكه حماه في أوائل سنة ثمان وثمانين فكان عمره خمسين سنة وشهوراً ومدة ملكه تسعاً وعشرين سنة تقريباً ولما نزل به المرض أمر خاصته بتحليف الجند والخاصة والعامّة لولده الأكبر الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود ففعلوا ذلك، وحلف الناس له أولاً ثم من بعده لأخيه الملك الناصر قليج أرسلان، وكان الملك المظفر تقي الدين يومئذ بالديار المصرية بالغزاة في خدمة خاله السلطان الملك الكامل، والملك الناصر قليج أرسلان بدمشق تخلف بها، فلما اشتد المرض بالملك المنصور

تعصب بعض الخاص للملك الناصر قليج أرسلان لقربه من حماة وأحضره وجرت أمور لم تحف عن أهل الأمر خلاصتها أنهم صعّدوا به الى القلعة في يوم الإثنين وأحضروا الذي كان حلف من الخاصة للملك المظفر أولاً والأمرء والخواص وطلبوا منهم ان يخلّفوا للملك الناصر قليج أرسلان ، فامتنعوا وقالوا للمستحلف إنك حلفتنا بالأمس للملك المظفر بالعهود وبالندور وبالأيمان المغلظة بالطلاق والعتاق فبأي فتوى ننتكث أيماننا ويقع علينا الطلاق والعتاق فأجابهم بما اشتهر، وجرت أمور عجيبة حتى حلفوا ونقضوا الأيمان بعد توكيدها وكان من لطف الله سبحانه أنني كنت مريضا في تلك المدة لم أحضر شيئا من ذلك، ودفن الملك المنصور في يوم الإثنين المذكور، وأظهروا موته في بكرة الثلاثاء، وعملوا عزاء عاما في الجامع الأعلى، واستقل بتدبير الملك من غلب على الملك الناصر ممن هو معروف لم يخف على الناس أمره وحاله.

### ودخلت سنة ثمانى عشرة

فيها فتح المسلمون دمياط وملكهم يومئذ الفاتح لذلك المولى السلطان الملك الكامل، وكان فتحا مشهودا لم يكن في الإسلام أعظم منه، وبعد هذه السنة خال من الحوادث الى :

### سنة اثنتين وعشرين

فيها توفي الامام الناصر لدين الله تعالى ابو العباس أحمد في ليلة السبت سابع شهر رمضان، ومولده كما ذكرناه في سنة اثنتين وخمسين وولي الخلافة في ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين، فكان عمره سبعين سنة وشهورا، وكانت مدة خلافته ستا وأربعين سنة وأحد عشر شهرا تنقص يومين، ولم يخلف ولدا ذكرا سوى ولده الإمام الظاهر أبي نصر محمد، وسنذكر ولايته، وكان الإمام الناصر عظيما مهيبا عالما، سياسيا

حازما وقد سقنا من أخباره جملا في التاريخ الكبير، وهذا المختصر لا يليق به التطويل، وقد حكى أنه لما عزل وزيره نصير الدين العجمي القمي وقبض عليه أسكنه في دار منعه من الخروج منها وأجرى عليه ما يقوم به وبأولاده فكتب الوزير إليه:

ألقني في لظى فإن غير تنبي  
فتيقن أن لست بالياقوت  
عرف النسج كل من حاك  
لكن نسيج داود ليس بالعنكبوت

فكتب إليه الامام الناصر جوابا:  
نسج داود لم يفلذ صاحب الغار  
وكان الفخار للعنكبوت  
وبقاء السمند في لهب النار  
مزيل فضيلة الياقوت

وهذا جواب فائق وشعر مفلق، ومعنى بديع، وكان رضي الله عنه يحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويحب اولاده ويميل إليه ويمتدحهم ويقدمهم ويفضلهم.....

### خلافة الامام الظاهر بأمر الله

عدة الدين أبي نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد. بويغ بالخلافة في يوم عيد الفطر من سنة اثنتين وعشرين، وكان والده قبض عليه مدة طويلة خوفا على نفسه، ولما ولي كان قد أناف على الخمسين سنة وظهر الشيب في لحيته، وحكى عنه انه قال: كم يقعد المعلم في المكتب إذا فتحه بعد العصر، فكان كما قال فلما دخلت:

## سنة ثلاث وعشرين

توفي في ثالث عشر رجب فكانت مدة خلافته تسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً.

خلافة الامام المستنصر بالله أبو حسن المنصور بن الامام  
الظاهر بأمر الله .

بويح بالخلافة يوم موت أبيه، واستبشر الناس بخلافته وتيمنوا ولايته، ورد على الناس أموالاً وأملاكاً كانت قبضت عليهم. وتظاهرت الرعية بالأموال، وظهر من العدل مالا يمكن وصفه، وأكثر من الصدقات بالأموال الجزيلة، ومنع أصحاب الأخبار والتخبر لما فيه من الفساد والضرر، وكان صاحب خبر كتب مطالعة اليه فكتب في جوابها: إن عاد كتب مطالعة أو خبر خبراً ضربت عنقه، ومنع أهل الفساد من ذلك ووصل الحق إلى مستحقه ومنع الظالم من تعديه وظلمه.

## ودخلت سنة أربع وعشرين

في سلخ ذي القعدة منها توفي الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وولي مكانه الملك الناصر صلاح الدين داود.

## ودخلت سنة خمس وعشرين

فيها في شعبان تجهز السلطان الملك الكامل إلى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى، حين علم تحشدهم وتجمعهم ولترتيب أمور المسلمين وبلادهم، فوافى تل العجول، وأناخ به، وتوجه الملك الأشرف إلى خدمته ومضى صاحب دمشق الملك الناصر صلاح الدين

داود معه لنجدته، واجتمعت عساكر المسلمين هناك، وكان الانبروز طاغية الفرنجة وعظيمهم خرج بجمع كثير الى الجزائر والسواحل، وخيف على بلاد الاسلام منهم فاجتهد السلطان الملك الكامل رأيه وصالحهم صلحا تاما رآه مصلحة للمسلمين وغنيمة لهم، فكان راعي هذه الأمة المحمدية، وسلطان الملة الاسلامية، ومن أعز الله تعالى به الدين وأهله، والمأمون عليهم، والناصح المشفق عليهم، ففعل مارآه مصلحة وغبطة ترجحت في نظره راعاها، وصالح الفرنج على ان يسلم اليهم البيت المقدس حرسه الله تعالى وحده، من غير تسليم شيء من أعماله ولا بلاده قليلا ولا كثيرا، وشرط عليهم ان لا يجددوا فيه شيئا ولا سورا ولا دورا ولا يتجاوزوا خندقه، وأن تقام فيه الجمعة للمسلمين المقيمين به، ولا يمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولا يؤخذ من زائر مال أصلا، وكان ذلك إن شاء الله تعالى من أكبر مصالحي المسلمين وأعظمها مما لا يخفى عن ذي البصيرة، فإن البيت المقدس موضع عبادة لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الناس، فسلم السلطان الملك الكامل ذلك إليهم مع تدممه وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردد إليه المصلون، وعقد معهم عقد الهدنة الشرعية المدة المرعية في نظر سلطان المسلمين وملكهم ومتولي أمورهم، واندفع عن المسلمين بذلك شر عظيم، وخوف وحصل الأمن مدة الهدنة فلا مصلحة للمسلمين أعلى من هذه المصلحة، ولا غبطة لهم أعظم من هذه الغبطة، ودخل البيت المقدس أناس قليلون من الفرنج لاشوكة لهم ولا عدد ولاعدة، وكان ذلك في سنة ست وعشرون وستائة، ومتى مهد السلطان الملك الكامل بلاد المشرق، وانفقت كلمة الملوك استعاد البيت المقدس من يد من هو فيه من الفرنج في يوم واحد، بل في ساعة واحدة حتى روي أنه وجد في المسلمين جماعة قتلوا ورموا في بئر هناك، فنسب المسلمون المقيمون بجمال القدس قتلهم إلى الفرنج، وهجموا عليهم البلد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة يقارب خمس مائة نفس كما روي، وحجزوهم

وأرهبوهم واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية مايكون من الذل، وعاد اللانبروز بعد الصلح التام إلى بلاده، ومازال السلطان الملك الكامل مقبياً بتل العجول يمهد الأرض ويملاها عدلاً.

وفيها عاد الملك الأشرف من تل العجول فأناخ على دمشق في أوائل ربيع الأول وحاصرها مدة ربيع وجمادين، وجاء السلطان الملك الكامل فخيم عليها، وجرت حروب كثيرة اشتهرت إلى أن ضاق الأمر بالبلد، فلم يكن للملك الناصر صلاح الدين داود إلا الترامي على السلطان الملك الكامل واستمطار مراحمه، فخرج إليه خفية وأكب على قدميه قبلهما، فرحب به السلطان وأكرمه ورأى له سعيه، وطيب قلبه ووعدته بالدخول في أمره، وأعادته إلى دمشق إلى أن يفصل القضية وصلح الحال بينه وبين الملك الأشرف على أن الملك الأشرف يتسلم دمشق، فدخلها في أول يوم من شعبان من السنة في يوم الاثنين، ووهب السلطان الملك الكامل للملك الناصر صلاح الدين داود الكرك بما فيه من أموال ونابلس وبيسان وبلاد كثيرة وستة وعشرين ألف دينار مصرية كما قيل، وأحسن إليه إحساناً لم يخطر بباله وتوجه إلى بلاده وقلاعه، وفيها تسلم السلطان الكامل من الملك الأشرف حران والرها ورأس عين، وجملة من بلاد الشرق، وفيها نزل السلطان الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك المنصور على حماة في يوم الجمعة في شهر رمضان ونازلها وقاتلها بالمجانيق وغيرها، واستمر الحال هكذا إلى ليلة الخميس سابع عشر شهر رمضان فخرج الملك الناصر قليج أرسلان من حماة ليلاً وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل إلى سلمية، وكان قد وصل إليها في ذلك اليوم، فوصل إلى المعسكر المنصور الملكي الكامل على سلمية متذلاً مدعناً مستسلماً، فرحب السلطان به، وبعد يومين من ذلك وصل كتاب الملك الناصر إلى نوابه بقلعة حماة أن يسلموها إلى نواب الملك الكامل وعرفهم أنه قد طاب قلبه ورضي بما وهبه السلطان الملك الكامل عوضاً عن حماة سروج، وماله بحماة من مال وغيره وأن

ذلك أنعم عليه من السلطان، فلما وصل الكتاب إلى نوابه بحماة تهيئوا لنقل الأثقال، ثم شغبت جماعة من الخدم والمماليك، وقالوا لانسلم القلعة والمدينة إلى نواب الملك الكامل ولانخرجها عن بيت الملك المظفر تقي الدين وعن أولاده وأولاد أولاده، كل ذلك ظنا منهم أن السلطان الملك الكامل قد أخذ البلد لنفسه ولم يكن الأمر كما ظنوه، ولا كما توهموه، فوصلت كتب السلطان الملك الكامل ثانيا: لم نرد هذه المدينة لأنفسنا، ولو رمنا ذلك لما امتنع علينا، فإن البلاد بلادنا والأولاد أولادنا، ونحن نتصرف في ذلك كيف شئنا، وقد اطلقنا البلاد والأقاليم انعاما وتطوعا، فإذا كنتم تؤثرون مصير هذا الأمر إلى أولاد الملك المنصور فالملك المظفر عندكم وقفوا الحال معه، فإن الملك الناصر تضرع إلينا وطلب منا أن لا يصير الملك لأخيه الملك المظفر فإذا اخترتم انتم خلاف ما اختاره وآثرتم الملك المظفر فشكر الله سعيكم وتقبل منكم جزاكم الخير كيف حفظتم بيت استاذكم، وأنتم فسلموا المدينة والقلعة إلى الملك المظفر، فهو كبير البيت ومربيه، وكان والده الملك المنصور رحمه اوصى له به وفوضه إليه، وهو مصالح أخاه كما يتفق معه، وقد أخرجنا أنفسنا من الوسط، وتوجه السلطان الملك الكامل إلى الشرق في ثالث عشرين شهر رمضان، ووكل أمر الصلح إلى نوابه المحاصرون لحماة: الملك المجاهد صاحب حمص، والملك العزيز صاحب بانياس، والأمير عثمان، والأمير فخر الدين البانياسي وجماعة من الأمراء واستقر الحال والحمد لله وانتظم الصلح، واستدعاني من بالقلعة المحروسة من النواب وقالوا قد تقرر الصلح ودخول المولى السلطان الملك المظفر إلى المدينة وتسلمه لها، ونوثر منك المضي إلى خدمته مع العسكر المنصور وطلب الأمان للأجناد والرعايا وتطيب قلوبهم وأخذ يده الكريمة على ذلك وتقبلها، فتوجهت مع جماعة من العدول إلى المخيم في يوم الإثنين سابع عشرين رمضان، فلما دخلت عليه في الخيمة زاد في الإكرام والإنعام، ورأيت ما يملأ العين قرة والقلب ابتهاجا ومسرة، وحصل عندي من

الفرح والجزل والسرور بسلطنته وولايته ما لا يمكنني والله وصفه لنفسي وللمسلمين، وسألته أن يؤمن الرعايا والأجناد والنواب على أنفسهم وأموالهم، فأمنهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالخير، وأخذت يده الكريمة على ذلك فقبلتها، ثم دخل المولى السلطان الملك المظفر إلى البلد في تلك الليلة ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان فنزل في الدار المعروفة بدار الأكرم وجلس للناس في بكرة الغد جلوسا عاما وكان يوما مجموعا له الناس، ويوما مشهورا بكثرة الفرح والإيناس لم يبق بالمدينة خاص ولا عام إلا ودخل إليه وقبل يده، واستبشر الناس بقدمه وسروا بمملكته وتيمنوا بسلطنته وعيد في دار الأكرم عيدا مشهودا لم يشاهدوه فيما تقدم من كثرة الخلع والخيرات، ومد سماط للناس على طبقاتهم وحضره خلق لا يحصون ولما كانت ليلة الجمعة ثاني شوال صعد القلعة المحروسة المباركة ليلا، وجلس بكرة الجمعة جلوسا عاما، ونادى في البلاد بإزالة المنكرات وإسقاط المكوس والضمانات، وخلع على القضاة والأمراء والنواب والخزندارية والمقدمين والرؤساء واستقر الملك والحمد لله تعالى له، وثبت وتضاعفت أدعية الخلق وحمده له تعالى وكثر ثناؤهم بها أنعم عليهم من سلطنة السلطان الملك المظفر ومملكته وولايته عليهم، وأمر بدار العدل ففتحت وأصلحت، وجلس بها وقصده الناس من كل جانب وكف اليد المعتدية، ومنع الظلم، وأوصل الحق إلى مستحقه، ورجع إلى المدينة من كان رحل منها، ورفعته إليه القصص، فوقع عليها بالعدل الشامل، والإنعام الكامل ووصل إلى خدمته الأمير الكبير العالم سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي الهذباني، وفوض إليه السلطان الملك المظفر جميع أموره في بلاده وقلاعة ورعاياه وأجناده فاعتدق ذلك، وقام به أحسن قيام ونظم شمل الدولة أجمل نظام، ورتب أحوال المملكة ومهددها، وشيد أركانها ووطدها، وقرب أهل الخير والصلاح وأدانهم وأحسن إليهم وأواهم، ورتب ذوي الأمانات والكفريات في مراتبهم وولاهم، وأبعد أهل الفساد والشر وأقصاهم، وطهر البلد منهم ونفاهم، وأظهر للشريعة

رونقا وهيبة، وفخم أمرها وأعظم في النفوس قدرها، وتقدم إلى كل من عليه حق بالخروج منه إلى السعي مع الخصم إلى مجلس الحكم كائنا من كان من أمير أو كبير، وخوفهم من المخالفة وحذرهم وأكد الوصاة عليهم وأنذرهم، وكان السلطان الملك المظفر لما ملك سلمية في سنة ست وعشرين وستمائة فوض أمورها إليه فساسها أحسن سياسة، وعمرها بالعدل أعظم عمارة، وبلغني من جماعة أنه مذ وليها لم يثبت في ديوانها درهم واحد من جناية ولا من مظلمة وابتنى قلعتها، وأعادها إلى أحسن مما كانت عليه، ورتب فيها من أمور القلاع من الأجناد والمستخدمين وغيرهم ما اشتهر ذلك وشاهده من شاهده، ووصل في خدمة السلطان الملك المظفر كاتبه الوزير الكبير العالم الذكي نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب أبي الحسن بن علي الزهري ذو الفضائل الغزيرة والعلوم الكثيرة، وأطلق له ألف دينار مصرية كان وعده بها، وحكى الوزير نجم الدين المسمى أن المولى السلطان الملك المظفر لما أطلقها له اعتذر استقلالها وأنه قال له: ياخوند من جملة انعام السلطان وفضله أنه يعطي الآلاف ويعتذر....